المكتبة الإعلامية

تحليل الخطاب الإعلامى

أطر نظرية ونماذج تطبيقية

د. محمد شومان

الدار المصرية اللبنانية

تحليـــل الخطـــاب الإعـلامـى

أطر نظرية ونماذج تطبيقية

الدكتور محمد شومان

الدار المصرية اللبنانية
16 ش عبد الخالق ثروت – القاهرة
تليفون : 3910250 - فاكس : 3909618
ص.ب : 2022 – القاهرة
e-mail info@almasriah.com
www.almasriah.com
المدير العام : محمد رشاد
المشرف الفنى : محمد حجى

المكتبة الإعلامية

هيئة التحرير

أ.د. منى سعيد الحديدى
أ.د. حسن عماد مكاوى

رقم الإيداع : 2007/23462
الترقيم الدولى : 7-096-427-977
الطبعة الأولى : محرم 1428هـ – يناير 2007 م

تحليل الخطاب الإعلامى

أطر نظرية ونماذج تطبيقية

الدكتور محمد شومان

الدار المصرية اللبنانية



إهـــــداء

إلى جدى لأمى..

عبد الرحمن الصياد.. رحمة الله عليه..

من شيوخ الأزهر..

كان من تلاميذ محمد عبده..

وظل مخلصًا لمدرسته..

ومات قبل مولدى بسنين طويلة..

لكنى التقيته وأحببته عبر ما تبقى من مكتبته..

وعبر تلاميذه الذين كانوا أساتذةً لى.

المؤلف

من منطلق حرص الدار المصرية اللبنانية على إصدار سلاسل متخصصة فى مختلف العلوم والفنون والآداب، تأتى هذه السلسلة (المكتبة الإعلامية) لتتكامل مع سلاسل أخرى أصدرتها الدار فى العلوم التربوية والدينية والأدبية والفكرية، بما يسمح بسهولة متابعة الإنتاج الفكرى الجديد لكافة الدارسين والممارسين.

وتهدف هذه السلسلة إلى تحقيق الأغراض التالية:

١- إثراء المكتبة العربية فى مجالات علوم الاتصال وفنون الإعلام، حيث شهدت هذه العلوم تطورات كبيرة طوال القرن العشرين، وأصبح الإعلام ظاهرة مؤثرة فى جميع الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٢- ظهور عديد من كليات وأقسام الإعلام فى الجامعات المصرية والعربية، وحاجة هذه الأقسام إلى متابعة الإنتاج الفكرى فى مجالات الإعلام الذى يسهم فى تنظير فروع علم الاتصال من منظور عربى.

٣- تزويد الممارسين للعمل الإعلامى بالمعلومات الجديدة فى مجالات التكنولوجيا والإنتاج الإعلامى، وتأثير الرسائل الإعلامية والإعلانية على الجماهير المستهدفة.

٤- نشر الثقافة الإعلامية من خلال التأليف والترجمة ونشر الرسائل المتميزة للماجستير والدكتوراه، لأهمية هذه الثقافة التى أصبحت ضرورة لا غنى عنها، لتيسير الانتفاع بمصادر المعلومات والإعلام المتعددة فى العصر الحديث.

الناشر

تقديم

يأتى هذا الكتاب "تحليل الخطاب الإعلامى: أطر نظرية ونماذج تطبيقية" للدكتور/ محمد شومان ـ إضافة متميزة لإصدارات سلسلة المكتبة الإعلامية للدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع فى إطار سعيها المستمر بتوفير مزيد من المراجع والدراسات العربية التى تجمع بين الجوانب النظرية والتطبيقية بما يفيد الدارسين ويعين الباحثين للصحافة وعلوم الاتصال وفنون الإعلام والممارسين الإعلاميين.

ويأتى هذا المؤلف متسمًا بالشمولية والعمق نتيجة اهتمام مؤلفه منذ أكثر من ربع قرن بهذا الموضوع "تحليل الخطاب الإعلامى" بدءًا من رسالة للماجستير.

وقد عرض د. محمد شومان على مدى فصول الكتاب الثلاث لنقاط رئيسية: مفهوم تحليل الخطاب، مدارس تحليل الخطاب واتبع ذلك بممارسات ونماذج تطبيقية على الخطاب العربى فى الصحافة المصرية فى الفترة من ١٩٢٤ حتى ١٩٣٩ وتميز الكتاب بالتكامل وبالمنهجية وبالتسلسل المنطقى وبدقة التعبير وسلامة اللغة وتقسيم الموضوع إلى جزئيات واستخدام العناوين الفرعية الجانبية بما ييسر عملية الاستيعاب، هذا بالإضافة إلى شمول الكتاب على عديد من المصطلحات الأجنبية وتعريبها وتقديم النماذج والممارسات البحثية فى ملاحق الكتاب.

هذا بالإضافة إلى شمول خاتمة الكتاب على موقف المؤلف فى إشكاليات تحليل الخطاب الإعلامى وتحديده لنقاط الاتفاق والاختلاف فيما يخص مجال تحليل الخطاب الإعلامى بما جعل من هذا الكتاب إضافة علمية جادة للمكتبة الإعلامية العربية بشكل عام وللمهتمين بمجال الصحافة نظريًا وعمليًا بشكل خاص.

والله ولى التوفيق،

هيئة التحرير

مقدمة المؤلف

لهذا الكتاب قصة طويلة من المعاناة والقلق والحب، فقد بدأت فى الاهتمام بتحليل الخطاب الإعلامى منذ نحو ربع قرن، وتحديدًا فى منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، حين كنت أعد رسالة الماجستير فى قسم الصحافة بكلية الإعلام جامعة القاهرة، وفى هذه السنوات، التى تبدو لى الآن بعيدة قريبة، كان من النادر استخدام تحليل الخطاب فى الدراسات الإعلامية المصرية، وكان مفهوم الخطاب ذاته غامضًا بالنسبة لى، ومع ذلك حاولت التعرف على مفهوم الخطاب وتحليل الخطاب واستخداماته.

وشرعت فى برنامج مكثف من القراءة والترجمة، ولكن كلما أنجزت بعض القراءات وتخيلت أننى أقترب من فهم مجال الخطاب، وتحليل الخطاب – خاصة تحليل الخطاب الإعلامى – أكتشف أننى فى حاجة إلى مزيد من التعلم والدراسة، وكلما تقدمت خطوات أكتشف أن هناك مدارس وتيارات أهم تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث.

وانتهيت من إعداد رسالتى للماجستير مستخدمًا بعض أدوات تحليل الخطاب بطريقة بدائية، وربما ساذجة، ولكنها كانت من المحاولات المصرية الأولى فى حقل تحليل الخطاب الإعلامى، ومن هنا نالت الرسالة كثيرًا من الإشادة والتقدير، ومع ذلك لم أكن راضيًا أو مطمئنًا لما توصلت إليه .. لذلك واصلت اهتمامى بمجال تحليل الخطاب، لكن الحقيقية أن هذا الاهتمام لم يكن منتظمًا أو متواصلاً، فكثيرًا ما كنت أنشغل عن مجال تحليل الخطاب بموضوعات وقضايا أخرى، ومع ذلك لم يختف اهتمامى بمتابعة مجال تحليل الخطاب، وبدأ ينمو بداخلى أمل وهدف أن أكتب فى هذا المجال الثرى والجديد.

والحق أن الكتابة عن تحليل الخطاب – خاصة تحليل الخطاب الإعلامى – كان

أملاً أو حلمًا مراوغًا، فالموضوع أصلاً غامض، وملتبس، وتدور حوله معارك ونقاشات فكرية ومنهجية صاخبة، ورغم كثرة وتنوع ما يكتب إلا أنه لا يوجد اتفاق على شيء محدد بشأن الخطاب وتحليل الخطاب، وهل هو نظرية أم منهج أم أداة للتحليل، كما أن مدارس تحليل الخطاب ترتبط بتيارات ومدارس فكرية وفلسفية لا يوجد بينها اتفاق، ومع ذلك من الضرورى الاطلاع عليها ودراستها حتى يمكن فهم واستيعاب مدارس تحليل الخطاب. ثم بعد هذه الخطوة لابد للباحث أن يستوعب بوعى ما يقرأه ويتخذ منه موقفاً، ثم تأتى بعد ذلك خطوة تطبيق الإطار النظرى والمنهجى الذى اقتنع به أو ألزم نفسه به فى تحليل مادة الخطاب الإعلامى.

ومثل هذا النهج يدفع الباحث من جديد إلى الدخول فى عالم من الجدل الفكرى الصاخب والمثير والثرى بشأن حدود الخطاب وعلاقته بالواقع وبالنصوص – المقروءة والمسموعة والمشاهدة – والصور والرموز، فضلاً عن طبيعة التحليل وحدوده وعلاقته بالتأويل.

هذه الإشكاليات حالت طويلاً بينى وبين الكتابة النظرية والمنهجية عن تحليل الخطاب الإعلامى رغم أننى استخدمته فى العديد من البحوث المنشورة لى، إلى أن شاركت عام ٢٠٠٤ فى المؤتمر العلمى العالمى لتحليل الخطاب.

وشاركت فى المؤتمر ببحث تحت عنوان: " إشكاليات تحليل الخطاب فى الدراسات الإعلامية العربية : الدراسات المصرية نموذجًا " (شومان، ٢٠٠٤) رصدتُ فيه الملامح الرئيسية لمدارس تحليل الخطاب بهدف الكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف بينها من النواحى النظرية والمنهجية، وتأثير ذلك على البحوث العربية فى مجال تحليل الخطاب الإعلامى.

ورغم صعوبة وجدة البحث إلا أن ترحيب ونقد الزملاء والأساتذة المشاركين فى المؤتمر – خاصة الزملاء من فرنسا والجزائر والمغرب وتونس – قد شجعنى على

مواصلة وتطوير البحث، وخاصة أن كثيرًا منهم ممن يتابعون المدرسة الفرنسية فى تحليل الخطاب لم يكن على دراية - مثلى تمامًا - بمدارس تحليل الخطاب الألمانية والاسكندنافية.

القصد أننى تشجعت على تأليف هذا الكتاب، الذى أعتبر رحلته معى هى محاولة دائمة للتعلم والدراسة، وأعتقد أن هذا الكتاب سيظل هكذا محاولة للتعلم والدراسة، ومن ثمّ سأرحب دائمًا بالملاحظات النقدية من القراء المتخصصين أو غير المتخصصين، لأن مجالات تحليل الخطاب أقرب إلى حقل ألغام متخم بالإشكاليات والموضوعات المعقدة.

والهدف الذى سعيت إلى تحقيقه فى هذا الكتاب أن أقدم استعراضًا نقديًا شاملاً لمدارس واتجاهات تحليل الخطاب ينتهى باستخلاصات عامة تُعبّر عن موقفى فى إشكاليات تحليل الخطاب الإعلامى، آثرت أن أسجلها فى خاتمة الكتاب فى شكل استخلاصات عامة قابلة للنقاش والتطوير، إذ إننى على يقين أن كل ما أقدمه هنا هو عبارة عن خطاب مفتوح قابل للنقد والتعديل والتطوير.

وحتى لا يبدو عملاً نظريًا مجردًا، فضّلت أن أزود هذا الكتاب - الذى ربما يكون الأول من نوعه فى المكتبة العربية - بملاحق تقدم نماذج وممارسات بحثية تطبيقية لعملية تحليل الخطاب الإعلامى. وأعتقد أن قراءة هذه الملاحق أمر لا غنى عنه، بل مُكمّل لفهم واستيعاب مدارس واتجاهات تحليل الخطاب والإشكاليات النظرية المرتبطة بكل منها. وقد أضيف للقارئ العزيز اقتراحًا بقراءة بعض أبحاثى المنشورة حول تحليل الخطاب بموقعى على الإنترنت (www.drshowman.com)، إذ ربما يجد فيها بعض التطبيقات لعملية تحليل الخطاب.

وتنطلق رؤيتى النظرية فى هذا الكتاب من حقيقة التداخل والتكامل المنهجى بين العلوم والتخصصات التى استخدمت مفهوم الخطاب، وعمليات تحليل

الخطاب بما فيها الخطاب الإعلامى. فاللحظة التاريخية والمعرفية المعاصرة تتجاوز قضايا النقاء النظرى المعرفى، وتنحو باتجاه الجمع والتأليف بين العديد من المنظورات والرؤى الفلسفية والنظرية والمدارس الفكرية، انطلاقًا من أن التغيير المستمر والنسبى هما الحقيقة الثابتة فى إدراكنا للواقع وفى حدود وشروط العلم، بل ووظيفته.

أما منهجى فى عرض وتحليل مدارس واتجاهات تحليل الخطاب فيقوم على التحليل النقدى المقارن لاتجاهات ومدارس تحليل الخطاب، مع الحرص على رد وتأصيل مفاهيم وإشكاليات تحليل الخطاب إلى أصولها النظرية، ومن ثمّ التعريف بالجذور الفلسفية والمنطلقات النظرية لأصحاب الاتجاهات والمدارس المختلفة فى تحليل الخطاب.

ويعكس تقسيم الكتاب رؤيتى النظرية ومنهجى فى التناول، حيث قسمت الكتاب إلى ثلاثة فصول: فى الفصل الأول تناولتُ بالنقاش مفاهيم الخطاب وتحليل الخطاب والإشكاليات التى يثيرها، كما أوضحت بعض الأمور الخاصة بمنهجى فى التناول، ثم عالجتُ فى الفصل الثانى أبرز وأهم مدارس واتجاهات تحليل الخطاب بداية من مدارس التحليل اللغوى وانتهاءً بالتحليل النقدى، مرورًا باستعراض سريع للمساهمات الرائدة لميشيل فوكو فى مجال تحليل الخطاب، إضافة إلى التحليل السميولوجى للخطاب الإعلامى، وتحليل المحادثة، والمدرسة الألمانية فى تحليل الخطاب.

وعبر هذه المعالجة السريعة تناولتُ مساهمات فان ديك Van Dijk ، والتى بلور خلالها منهج تحليل الخطاب الاجتماعى الإدراكى، كما اعتمدتُ على مساهمات باحثين من دول اسكندنافية، وأعتقد أننى منحتُ أعمال ميشيل فوكو وفان ديك وفيركلاو Fairclough كثيرًا من الاهتمام ربما لأهمية مساهمات كل منهم فى مجال تحليل الخطاب.

أما الفصل الثالث فكان بمثابة ملاحق تتضمن نماذج وممارسات بحثية تطبيقية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي، وجاءت الخاتمة في شكل نتائج واستخلاصات عامة بشأن نقاط الاتفاق والاختلاف أو ما يمكن وصفه تحديدًا بالتناص بين هذه المدارس في مجال تحليل الخطاب، كما قدمتُ بعض التوصيات التي تعبر عن رؤيتي الخاصة في مجال تحليل الخطاب الإعلامي، خاصة فيما يتعلق بالدراسات الإعلامية في مصر.

المؤلف

الفصل الأول

تحليل الخطاب (إشكاليات نظرية ومنهجية)

ارتبطت نشأة وتطور بحوث ودراسات الإعلام فى العشرينيات من القرن الماضى بالنموذجين الوضعى والسلوكىpositivist and behaviorist paradigm، فقد استمد التخصص الجديد الكثير من منطلقاته ومفاهيمه وأطره النظرية والمنهجية من هذين النموذجين. فى هذا الإطار ركزت بحوث الإعلام ـ وما تزال ـ على تأثير وسائل الإعلام فى الجمهور اعتمادًا على ما يعرف بدراسات الجمهور، وأهملت إلى حد كبير دراسة مضمون وشكل الرسالة الإعلامية التى يفترض أنها تُحدث التأثير المطلوب أو المرغوب من وجهة نظر المرسل أو القائم بالاتصال سواءً كان شخصًا أو مؤسسة إعلامية.

وحتى عندما التفت الباحثون لأهمية دراسة شكل ومضمون الرسالة الإعلامية لم تعرف الدراسات الإعلامية سوى التحليل الكمى لمضمون أو محتوى الرسالة الإعلامية، والذى ذاع صيته بفضل مقال بريلسون Berelson الشهير، والذى نشره عام ١٩٥٢ بعنوان: التحليل الكمى للمحتوى فى أبحاث الاتصال. واستنادًا إلى مساهمات بريلسون وآخرون سادت تقاليد التحليل الكمى الدراسات الإعلامية، وأصبحت جزءًا من التقاليد البحثية فى حقل الدراسات الإعلامية، بينما اختفت أو غُيِّبت الدراسات الكيفية واتهمت بالتحيز والبعد عن الموضوعية. ويرصد تومبكنس Tompkins استمرار هذه الظاهرة فى أقسام وكليات الإعلام الأمريكية والمجلات العلمية، حيث قام بتحليل ملخصات البحوث المنشورة فى المجلات الإعلامية الأمريكية فى الفترة من ١٩٨٨ـ١٩٩٤، ووجد ستة بحوث فقط استخدمت مناهج بحوث كيفية، وفسر

تومبكنس ذلك فى ضوء عاملين هما: الاعتقاد السائد بين الباحثين بأن المجلات العلمية لا تنشر البحوث الكيفية، بالإضافة إلى نقص التدريب على تحليل المضمون الكيفى. **(Tompkins, 1994, PP. 44-50)**

لكن يمكن إضافة عامل ثالث لتحليل تومبكنس يتمثل فى قلة الاهتمام بدراسة مضامين الرسائل الإعلامية والذى ارتبط بنشأة تخصص الإعلام فى إطار الوضعية والسلوكية. من هنا يذكر لنجر Langer عام ١٩٩٨ أن الرسائل فى النصوص الإعلامية لم تحظ فعليًا بالاهتمام الأول فى مجال بحوث الإعلام خلال الخمسة عشرة إلى العشرين سنة الأخيرة، وظهرت كثير من البحوث فى التسعينيات تركز على عمليات إنتاج واستقبال الأفراد أو المجموعات للرسائل الإعلامية، وذلك رغم أن الأفراد المتلقين يفسرون النصوص الإعلامية وفقًا لحياتهم الشخصية وخبراتهم وتجاربهم الذاتية، إلا أن للنص ذاته تأثيرًا حاسمًا على تفسيراتهم. **(Langer,1998)**

على أن سيادة وهيمنة مناهج وأدوات التحليل الكمى لم تمنع ظهور كثير من الانتقادات، التى انصبت على شكلية وعدم موضوعية فئات تحليل المضمون الكمى، التى تدعى بدون أساس علمى الدقة والموضوعية، وتنزع إلى تفتيت النص، وتحويله إلى مجرد أرقام وبيانات إحصائية لا تكشف عن معنى النص أو المعانى التى يحملها. إن التحليل الكمى عكس التحليل الكيفى يهمل سياق النص وعلاقات القوى داخله، ومنظور الفاعل، فضلاً عن عدم الاكتراث بالمعانى الضمنية أو غير الظاهرة فى النص (عبد الرحمن وآخرون،١٩٨٣). من هنا بدأت تظهر على استحياء محاولات لاستخدام مناهج وأدوات للتحليل الكيفى فى دراسة النصوص الإعلامية، وقد اتسمت فى البداية بالتردد والخلط وعدم الوضوح أو التكامل المنهجى والإجرائى، لكنها شكلت نوعًا من المواجهة والتحدى للتقاليد السائدة فى مجال الدراسات الإعلامية. **(Curtin, 1996)**

وفى مطلع السبعينيات من القرن الماضى اتجه عدد من الباحثين الاسكندنافيين فى مجال الإعلام إلى تأييد واستخدام التحليل الكيفى للمحتوى من منظور

أيديولوجى، وعُرف هذا التوجه بالاتجاه الإنسانى humanistic trend، والذى ركز على علاقات القوة التى تحاول النصوص الإعلامية التعبير عنها، كما سعى لتطوير أدوات التحليل الكيفى مستفيدًا من التطور الذى تحقق فى مجال الدراسات اللغوية والسميولوجية(العلاماتية)، وتحليل النص. وكان من أبرز ممثلى هذا الاتجاه الباحث الدانماركى بيتر لارسن Better Larsen، والذى أكد أن التحليل الكيفى ليس غاية فى حد ذاته.

ووفقا لما ذكره مايرينج Mayring فإن التحليل الكيفى للمحتوى يقوم على الفحص الدقيق لمصادر المادة المزمع تحليلها، وعلى الملاحظة الصريحة والفهم الذاتى للذين يقومون بالتحليل، مع الاهتمام أيضًا بوجهات نظر الآخرين، بالإضافة إلى تقبل نتائج إعادة التفسير. وتعتبر المصطلحات السميولوجية والنظرية البراجماتية للمعنى وقواعد التفسير. على أساس التحليل البنيوى للنص من أدوات عملية التحليلى الكيفى، والتى تتضمن المبادئ الأساسية لتلخيص وشرح وهيكلة المادة محل الدراسة. (**(Howley, 1999- Langer, 1998**

لكن هذه الأدوات المنهجية لم تكن كافية لدراسات الرسائل أو النصوص الإعلامية فى علاقاتها المتشابكة والمعقدة مع الرسائل السابقة، ومع بنية المجتمع والقوى المهيمنة عليه. من هنا تطورت محاولات التحليل الكيفى فى الثمانينيات من القرن الماضى باتجاه تبنى منهجية تحليل الخطاب، وتحليل الخطاب النقدى، وقد تأثرت هذه المحاولات بهيمنة اتجاه ما بعد البنيوية. ورغم عدم الاتفاق على مفهوم الخطاب إلا أنه أصبح يستخدم على نطاق واسع فى تحليل النصوص الإعلامية، وقد نشأ مفهوم الخطاب فى إطار دراسات اللغة والألسنية أو علم اللغة الحديث، رغم أن علماء الألسنية الأوائل أمثال: سوسيرSaussure ١٨٥٧-١٩١٣، وهلمسلف Hlemslew ١٨٩٩- ١٩٦٥، وجاكوبسون Jakobson وغيرهم لم يناقشوا موضوع الخطاب.. وإنما كان بيسنس Buyssens أول من طرح مسألة الخطاب فى الدراسات الألسنية عام ١٩٤٣،ولكن النقلة الألسنية الكبيرة فى مسائل الخطاب

جاءت على يد بنفست Benvenist ١٩٠٢_١٩٦٧. وفى الوقت الحالى هناك توجه كامل فى فرنسا ـ كما يقول الزواوى بغورة ـ يسمى تحليل الخطاب، ويظهر فى أشكال مختلفة يمكن تصنيفها إلى أربع منظومات كبرى هى: المنظومة المنطوقية،والمنظومة الحجاجية، والمنظومة السردية، والمنظومة الخطابية. وقد ارتبطت الأعمال الأولى للبنيويين الفرنسيين أمثال: كلود ليفى شتراوس، ورولان بارت، وجان لكان، وميشيل فوكو ـ بهذه الأشكال من تحليل الخطاب. (بغورة، ٢٠٠٥).

ويمكن القول أن السيميولوجيا (العلاماتية) قد قادت فى الستينيات وأوائل السبعينيات حقل تحليل النصوص الإعلامية، ووفرت للباحثين أسلوبًا لتحليل المعنى، بينما هيمن التحليل الأيديولوجى على هذا الحقل فى أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات، وزود الباحثين بمنهج للتفكير فى العلاقات بين المعنى والبنية الاجتماعية،ومنذ منتصف الثمانينيات وحتى الآن أصبحت نظرية الخطاب هى التى تقود عمليات تحليل النصوص الإعلامية، ولقد دفعت نظرية الخطاب الباحثين إلى إعادة التفكير فى العلاقة بين المعنى والبنية الاجتماعية،من خلال التركيز على السلطة من داخل نظام المعنى وليس من خارجه، فنظم المعنى نفسها تعتبر سلطة،وهى لا تظهر بسهولة كنظم، مثل: بنية اللغة، بل من خلال ممارسات ذات دلالة. إنها ليست ببساطة المعانى المرتبطة بالممارسات الاجتماعية ـ كما يقول ألتوسير فى نظرية الأيديولوجية ـ بل إن المعنى والممارسة لا يمكن التمييز بينهما، فهما مترابطان، أى أن المعنى هو الممارسة فى نظرية الخطاب. (Tolson, 1996, p.196)

إذن ما هو الخطاب؟ وماذا يعنى تحليل الخطاب؟ وما هى أهدافه؟ وما أهم أدوات تحليل الخطاب؟ وهل الخطاب أداة للتحليل أم نظرية تفسيرية؟ وأخيرًا هل هو أداة محايدة أم أداة ومنهج يرتبط بنظرية عامة أو نظريات فى إدراك وتفسير الواقع؟. كل هذه الأسئلة المحيرة مرتبطة أشد الارتباط، ويوجد لها عدد متعدد ومتنوع من الإجابات. فى هذا السياق يقول فان ديك Van Dijk أحد رواد تحليل الخطاب : ما هو الخطاب؟، ويجيب أنه سؤال بسيط فى ظاهره، معقد فى حقيقته.

ويتابع فان ديك فى مقدمة كتاب له أن السبعمائة صفحة بأكملها، التى يتكون منها الكتاب المؤلف من مجلدين عن موضوع الخطاب، هو عبارة عن إجابة تفصيلية على سؤال : ما هو الخطاب؟. (Nelson Phillips and Cynthia Hardy, 2002)

إن الخطاب ليس هو اللغة، كما توجد اختلافات عميقة بين الخطاب والنص، وذلك رغم نشأتهما التقليدية من الدراسات اللغوية. إن الخطاب والنص يبحثان فى البناء والوظيفة لوحدات اللغة الكبرى، كما تطورا فى نفس الوقت تقريبًا، لذلك هناك من يعتبرهما متطابقين، لكن لا شك فى وجود فروق كبيرة بينهما على مستوى المفاهيم والمناهج والوظائف. فالخطاب يركز على اللغة والمجتمع. (Tankard,1994). بالإضافة إلى أن الخطاب متحرك ومتغير، وله جمهور وهدف وقصد معين، ويتشكل من مجموعة من النصوص والممارسات الاجتماعية.

إن الخطاب فى كلمات بسيطة هو طريقة معينة للتحدث عن الواقع وفهمه، كما أنه مجموعة من النصوص والممارسات الخاصة بإنتاج النصوص وانتشارها واستقبالها، مما يؤدى إلى إنشاء أو فهم الواقع الاجتماعى.

ويشير الخطاب ـ كما يقول فيركلاو Fairclough ـ إلى استخدام اللغة حديثًا وكتابةً، كما يتضمن أنواعًا أخرى من النشاط العلاماتى مثل: الصور المرئية ـ الصور الفوتوغرافية، الأفلام، الفيديو، الرسوم البيانية ـ والاتصال غير الشفوى ـ مثل: حركات الرأس أو الأيدى... إلخ ـ ويخلص إلى أن الخطاب هو أحد أشكال الممارسة الاجتماعية، ثم يستخدم فيركلاو الخطاب بمعنى أضيق حين يقول : "الخطاب هو اللغة المستخدمة لتمثيل ممارسة اجتماعية محددة من وجهة نظر معينة". وتنتمى الخطابات بصفة عامة إلى المعرفة، وإلى بناء المعرفة. (Fairclough,1995, pp. 53-56)

إن الخطاب هو كل الأشياء التى تكوّن العالم الاجتماعى، بما فى ذلك هوياتنا، أو بعبارة أخرى الخطاب هو واقعنا الاجتماعى وإدراكنا لهويتنا، أى أنه بدون خطاب

لا يوجد واقع اجتماعى، وبدون فهم الخطاب لا يمكن أن نفهم واقعنا أو تجاربنا أو أنفسنا. ومن ثمّ تبدو أهمية تحليل الخطاب، فمن خلال منهجية تحليل الخطاب نستطيع تفسير الواقع الاجتماعى.

وحتى نستكمل فهم المقصود بالخطاب ـ تحديدًا ـ يجب أن نسلم بحقيقة عدم وجود خطاب واحد أو خطاب وحيد، فهناك عدد من الخطابات المتصارعة وغير المكتملة والملتبسة والمتعارضة، وعبر صراع هذه الخطابات يتشكل الواقع الاجتماعى وتتشكل هوياتنا. من زاوية أخرى فإن تحليل الخطاب يمثل إطارًا نظريًا لمراقبة الواقع عبر إجراء دراسات تطبيقية. **(Nelson Phillips Cynthia Hardy, 2002)**

على أن فيركلاو وغيره من الباحثين فى حقل تحليل الخطاب النقدى قد توسعوا فى تعريفاتهم واستخداماتهم لمفهوم الخطاب بحيث غدا عندهم يشمل كل شىء، وتقع تحت مظلته تخصصات ومجالات واسعة فى العلوم الاجتماعية ومن منظور نقدى. وقد ترافق ذلك مع التوسع فى استخدام تحليل الخطاب النقدى عبر تخصصات مختلفة ولأغراض متباينة، مع غياب التعاون بين هذه التخصصات، مما أدى إلى عدم الاتفاق على ما هو تحليل الخطاب، وكيف يمكن تطبيقه، وما هى حدوده وإمكانياته، ومثل هذه الحالة لا تقلق الكثير من الباحثين حيث يرى البعض أن كثيرًا من المفاهيم والنظريات التى تستخدم فى العلوم الاجتماعية على نطاق واسع مثل مفاهيم: الأيديولوجية،والوعى،والطبقة المتوسطة.. لا يوجد حولها اتفاق. **(Tankard, 1994)**. غير أن حالة عدم الاتفاق على مفهوم الخطاب ـ والتى تنتشر فى شتى مجالات العلوم الاجتماعية ـ ترتبط بغموض وحيرة قلّ أن تجد لها مثيلاً فى مفاهيم العلوم الاجتماعية.

ولعل ما يزيد الأمر غموضًا وارتباكًا تلك المفارقة الغريبة بين غموض مفهوم الخطاب وانتشار استخدامه على نطاق واسع فى شتى ميادين وتخصصات العلوم الاجتماعية فى السنوات العشرين الأخيرة، بل واستخدامه فى لغة السياسة والصحافة اليومية.

إن المفارقة بين انتشار استخدام الخطاب وبين غموض مفهوم الخطاب تمثل أول إشكالية تواجه دراسات وبحوث تحليل الخطاب النظرية والتطبيقية، وذلك ضمن مجموعة من الإشكاليات المعقدة المترابطة. أضيف إليها الإشكالية الثانية التى تتعلق بالاختلاف والتباين الشديدين حول الطبيعة المعرفية للخطاب، فهل هو نظرية أم منهج فى التحليل، حيث استخدمه بعض الباحثين والعلماء على أنه نظرية للتفسير، بينما استخدمه آخرون باعتباره منهجًا فى التحليل، ولا يقتصر الخلاف عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى صلاحية ومشروعية استخدامه وعلاقاته بالبناء الاجتماعى.

إن تحليل الخطاب يمثل منهجًا Methodology وليس فقط طريقة للدراسة Method، ويسجل هذا المنهج نظرة تفسيرية اجتماعية للواقع الاجتماعى. وتشترك مناهج تحليل الخطاب فى اهتمامها بالآثار التفسيرية للغة، وتعتبر أسلوبًا تفسيريًا – للتحليل. وفى هذا الصدد، لا يتضمن تحليل الخطاب مجرد مجموعة من التقنيات لإجراء تحليلات كيفية Qualitative للنصوص، بل يتضمن أيضًا مجموعة من الافتراضات بشأن الآثار التفسيرية Constructive للخطاب.

خلاصة القول أن تحليل الخطاب لا يتعلق فقط بأسلوب التحليل، بل إنه يشكل منظورًا بشأن طبيعة اللغة وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية والواقع الاجتماعى. وبعبارة أكثر تحديدًا، فإن تحليل الخطاب عبارة عن مجموعة متصلة من المناهج لدراسة الخطاب، وهذه المناهج لا يترتب عليها مجرد ممارسات لجمع البيانات وتحليلها، وإنما يترتب عليها أيضًا مجموعة من الافتراضات النظرية وما وراء النظرية.

ويشترك تحليل الخطاب مع كافة المناهج الكيفية Qualitative فى الاهتمام بما تحمله الحياة الاجتماعية من معانٍ. ولكن تحليل الخطاب يحاول تقديم استجواب أكثر عمقًا للوضع غير الآمن والمراوغ للمعنى. فالمناهج الكيفية التقليدية كثيرًا ما تفترض وجود عالم اجتماعى، ثم تحاول فهم معنى ذلك العالم بالنسبة للمشاركين (عينة البحث)، بينما يحاول تحليل الخطاب استكشاف كيف تم إنشاء الأفكار

والأشياء التى تسكن العالم ، وكيف يتم الاحتفاظ بتلك الأفكار والأشياء و إقرارها فى مكانها على مر الزمان.

وبينما تعمل المناهج الكيفية الأخرى على فهم أو تفسير الواقع الاجتماعى القائم، يحاول تحليل الخطاب التعرف على كيف تم إنتاج هذا الواقع الاجتماعى. وهذه هى أهم مساهمة من جانب تحليل الخطاب، حيث يفحص كيف تقوم اللغة ببناء الظواهر وليس كيف تقوم اللغة بعكس وإظهار الظواهر. بعبارة أخرى، ينظر منهج تحليل الخطاب إلى الخطاب باعتباره مكوّنًا للعالم الاجتماعى – وليس طريقًا للوصول إلى العالم الاجتماعى – ويفترض تحليل الخطاب أنه لا يمكن التعرف على العالم منفصلاً عن الخطاب.

وهكذا يتميز تحليل الخطاب بالتزامه بنظرة تفسيرية Constructivist اجتماعية، مع محاولته استكشاف العلاقات بين النص والخطاب والسياق. ورغم اختلاف النصوص فى درجة مزجها للنص والسياق يفترض تحليل الخطاب أنه يستحيل فصل الخطاب من سياقه الأوسع نطاقًا، ويستخدم تحليل الخطاب تقنيات مختلفة لتحليل النصوص من أجل اكتشاف أدلة تشير إلى الخطابات التى تنبع منها تلك النصوص.

ومن هذه الزاوية يعتبر تحليل الخطاب مختلفًا عن الأشكال الأخرى للبحث الكيفى. فعلى سبيل المثال، تقوم المناهج الأخرى مثل: التحليل الروائى والتحليل المحادثى Conversational بدراسة النص أو الحديث. وتأخذ تلك المناهج الأخرى السياق فى الاعتبار لتأكيد المعنى، ولكنها لا تتطرق عادة للخطابات الأوسع نطاقًا وللمجموعات المتراكمة من النصوص التى تُكوّن تلك الخطابات. فرغم اهتمام تلك المناهج بكيفية تأويل الروايات والمحادثات، إلا أنها تولى اهتمامًا أقل بتفسير الواقع الاجتماعى الأوسع نطاقًا. وبالمثل، كثيرًا ما تهدف الدراسات الإثنوغرافية ethnographies (انظر الفصل الثانى) إلى كشف معنى اجتماعى معين بالنسبة

للمشاركين (أى عينة البحث)، ولكنها تكون أقل اهتمامًا بكيفية ظهور هذا الواقع الاجتماعى للوجود من خلال الآثار التفسيرية للخطابات المختلفة والنصوص المتعلقة بها. (Nelson Phillips & Cynthia Hardy, 2002)

أما الإشكالية الثالثة التى تواجه الباحثين فى مجال تحليل الخطاب فترتبط بالاختلاف حول طريقة استخدام تحليل الخطاب والإجراءات المتبعة فى تحليل المادة العلمية التى تتعلق بمجال عمل أصحاب الاختصاصات المختلفة فى العلوم الاجتماعية، فالإجراءات التى يتبعها باحثو الإدارة لتحليل خطاب الإدارة تختلف مثلاً عن تحليل خطاب الدردشة عبر الإنترنت، كما تختلف ولاشك عن تحليل علم النفس الخطابى، ويبدو الاختلاف بصورة أوضح فى تحليل الخطاب الإعلامى، إذ إن الخطاب الإعلامى المقروء يختلف فى طريقة تحليله عن الخطاب الإعلامى المرئى، وكذلك عن الخطاب الإعلامى المسموع، وهنا نجد أن هناك مناهج تأويلية وتفسيرية وكيفية وكمية.

ولتوضيح ذلك تجدر الإشارة إلى أن بعض المناهج الكيفية التقليدية يمكن استخدامها فى تحليل الخطاب. فعلى سبيل المثال، يمكن استخدام تحليل المحادثة والتحليل الروائى للربط بين "الأحداث الجزئية "micro-events" والخطابات الأوسع نطاقًا كوسيلة لإظهار كيف تؤدى الروايات والمحادثات إلى تفسير التجربة الاجتماعية. وبالمثل، تتضمن الدراسات الإثنوغرافية مكوّنًا مهمًا من دراسات تحليل الخطاب من حيث إنها تظهر كيف تسن الخطابات فى ممارسات معينة.

كما يمكن استخدام تحليل المضمون بطريقة غير آلية، وإنما بطريقة تعتمد على التأويل بدرجة أكبر للربط بين المضمون النصى والسياقات الخطابية الأوسع نطاقًا. وعلى سبيل المثال، أجرى إلينجسون (Ellingson-1995) تحليلاً لمضمون عدد من المقالات ومقالات رئيس التحرير عن طريق تعيين موضوعاتها والاستراتيجيات البلاغية التى تستخدمها، ثم ربطها بالمتحدث والجمهور المخاطب ، وأجرى هولمز (Holmes-1998) تحليلاً لمضمون استخدام النساء للغة

مع دراسة علاقته بسلطة المرأة ووضعـــها. (Nelson Phillips & Cynthia Hardy, 2002)

ورغم أن الفلسفة التى يقوم عليها تحليل الخطاب تميزه عن أشكال أخرى من التحليل، إلا أن الحدود الفاصلة بين تحليل الخطاب والطرق الكيفية الأخرى تتلاشى أحيانًا. من هنا استخدم بعض الباحثين مجموعة متنوعة من التقنيات التأويلية من أجل إجراء تحليل الخطاب، أى أنهم استعاروا طرقًا كيفية تقليدية لتحليل الخطاب. (انظر المبحث الثالث من الفصل الثانى).

ويتطلب تحليل الخطاب من الباحث الذى يقوم بالتحليل الوعى بأهمية تشكيل الفئات والإطارات التى تنتج واقعًا من نمط معين. فبينما تميل مناهج أخرى إلى اعتبار الفئات التحليلية أمر مسلم به وتلحق بها البيانات، يهتم محللو الخطاب بالطبيعة المفسرة اجتماعيًا لفئات البحث ذاتها.

إذن لا تتمثل مهمة الباحـث عند تحليل الخطـاب فى تطبيـق فئـات على حـــديث المشاركـــين (عينة البحث)، بل فى تعيين الطرق التى يستخدمها المشاركون أنفسهم فى بناء واستخدام فئات فى أحاديثهم. كما أن محللو الخطاب ينتبهون إلى التفسير المشترك للفئات النظرية على مستويات متعددة بما فى ذلك دور الباحث، وموضوع البحث، والمجتمع الأكاديمى، وحتى المجتمع ككل. ويحاولون تصميم وعرض بحثهم بطرق تعترف بهذه العلاقات المعقدة. وهنا قد تثار إشكالية الموضوعية والتحيز فى عملية التحليل، حتى إن البعـض يتهـم تحليـل الخطـاب بالذاتيـة، ويصف طرقه المختلفة بأنها مجرد تأويلات شخصيـة. لكـن مثـل هـذه الاتهامـات من الممكن أيضًـا أن تثـار عنـد مناقشـة وتقييـم التحليل الكمى، وقد أشارت إلى ذلك كثير من الدراسات، حيث إن تحديد العينات وفئات التحليل وتصنيفها ورصدها واستنتاج دلالاتها ومعانيها وفق إجراءات التحليل الكمى لاتخلو من تحيزات ذاتية.

ولايعنى ذلك أن كل أدوات وعمليات تحليل النصوص والخطابات غير صالحة أو فاسدة، ولكن المطلوب فقط هو نزع القداسة والصرامة الموضوعية عن كل أنواع التحليل الكمى والكيفى، والتعامل معها وفق نظرة نسبية تتعلق بطبيعة العلوم الاجتماعية ووظيفتها. وتهدف هذه النظرة إلى التطوير المستمر لعمليات التحليل بغية فهم الواقع والمعنى،والاقتراب أكثر من الموضوعية والحد من الذاتية، أو حتى الاعتراف بوجودها وتحديد مجالها وتأثيرها فى مجمل عملية التحليل.

فى هذا السياق ولتطوير دقة وموضوعية تحليل الخطاب، هناك ضرورة عملية وعلمية للربط بين النص والسياق والخطاب وضرورة تضمين البحث استخدامًا محكمًا ودقيقًا لطرق البحث، ومثل هذا الأمر يمثل تحديًا رئيسيًا للباحثين فى مجال الخطاب، فكيف نتغلب على كل هذه التعقيدات؟

تجيب كل من نلسن فيليبس Nelson Phillips وسينثيا هاردى Cynthia Hardy بأنه لا يمكن دراسة كافة نواحي الخطاب، ويتحتم علينا اختيار مجموعة فرعية من النصوص لتحقيق إمكانية التعامل معها، ورغم ذلك، فباعتبارنا محللين للخطاب لابد أن نشير إلى الخطابات الأوسع نطاقًا، ونتعرف على موقع النصوص المنفردة فى الكميات الأكبر من النصوص، ونولى بعض الاهتمام لثلاثية أبعاد: النص، والسياق، والخطاب .

كذلك تواجهنا احتمالات التعلم من خلال العمل عندما نستخدم تقنية تحليلية معينة، فنفسر المعانى أولاً بأول ونعطى ثقلاً للمعانى المتعددة. وبعد أن نقوم بتضمين كل ذلك فى دراستنا، يجب أن نشرح عملنا فى حدود الطرق والمساحات المعتادة للنشر الأكاديمى.

الإشكالية الرابعة ترتبط بعلاقة الخطاب باللغة وبالواقع الاجتماعى. فالخطاب ينتمى إلى عالم اللغة أو العلامات باعتبار أن اللغة هى مجموعة من العلامات، لكن كل علامة لها علاقة بالواقع الاجتماعى. من هنا تثور إشكالية: هل اللغة تصنع

الواقع أم أن الواقع الاجتماعى هو الذى يحدد اللغة، بعبارة أخرى هل الأشياء المادية (الواقع) قائمة لكنها لا تكتسب معنى إلا من خلال الخطاب؟

ومن هذه الإشكالية تثور أسئلة بالغة الأهمية حول: من يصنع الخطاب وكيف يتغير؟ ومتى ولماذا يتغير؟ وما هى آليات تغيير الخطاب؟، لكن المتفق عليه أن الخطاب لا ينتج من فراغ، بل فى إطار سياق اجتماعى وثقافى وتاريخى محدد. من هنا لابد من تحليل الخطاب فى إطار الممارسة الاجتماعية، ولكى نفهم أى خطاب من الضرورى أن نربط بين الخطاب والسياق الاجتماعى والثقافى، بل ينبغى أن نربط بين هذا الخطاب ومجمل الخطابات التاريخية والمعاصرة .

الإشكالية الخامسة تتعلق بوحدة وتنوع الخطابات، وطبيعة العلاقات بينها، بمعنى: هل يوجد خطاب واحد لحقبة زمنية واحدة كما ذهب ميشيل فوكو، أم أن هناك خطابات متصارعة؟ .. ثم هل يختلف الخطاب السياسى عن الخطاب الاجتماعى عن الخطاب الإعلامى؟ .. وما هى العلاقات بين هذه الخطابات النوعية؟ .. وهل هى علاقات تنافسية أم صراعية أم تكاملية؟

الإشكالية السادسة تأتى كمحصلة نهائية للإشكاليات الخمس السابقة، إذ لا يخفى أن كل إشكالية مما أشرت إليها فى عجالة سريعة تعكس اختلافات فلسفية ومنطلقات متباينة لأصحابها، ومن ثمّ رؤى للعالم ومناهج مختلفة، الأمر الذى يشجع على دراسة هذه المنطلقات النظرية والمنهجية بحيث يرد الباحث كل اختلاف أو تباين حول مفهوم الخطاب وعلاقته باللغة والواقع الاجتماعى وآليات تغير الخطاب إلى الجذور الفلسفية والمنطلقات التى يعتمد عليها أصحاب المدارس والاتجاهات المختلفة فى دراسة واستخدام الخطاب، وهذا المنهج هو ما اعتمد عليه فى هذا الكتاب، لكن الإشكالية هنا ـ أقصد الإشكالية السادسة ـ أنه لا يوجد نقاء معرفى بين نظريات ومدارس واتجاهات تحليل الخطاب، بل هناك أنواع من التداخل والاستعارات المعرفية والمفاهيمية بين هذه المدارس والاتجاهات، بمعنى أنه من الممكن العثور على اختلاف فى الأسس المعرفية والمفاهيمية لنورمان فيركلاو

Norman Fairclough أحد رواد تحليل الخطاب، ورائد آخر هو فان ديك Van Dijk، ومع ذلك ثمة مشتركات معرفية ومفاهيمية بينهما، ثم أخيرًا يمكن القول أن أغلب مدارس واتجاهات تحليل الخطاب خرجت من معطف ميشيل فوكو ونقلت عنه أو تأثرت بأعماله، ومع ذلك اختلفت معه.

خلاصة القول أن الباحث يمكن أن يحدد الملامح الرئيسية لمدارس تحليل الخطاب، بما فى ذلك مدارس تحليل الخطاب الإعلامى، والتى قد تعكس سمات معرفية ومنهجية مختلفة، لكنها فى الوقت نفسه غير متصارعة بل تنقل عن بعضها البعض وتستخدم مفاهيم مشتركة تؤلف بينها وتطورها، دون أن تعترف بسيادة أحدها أو اندماجها فى منظومة واحدة. ولعل هذا المشهد يعكس أحد ملامح عصر ما بعد الحداثة، والخاص بنزع الطابع الثابت والجامد للمدارس المعرفية والنظريات الكبرى فى العلوم الاجتماعية. فى هذا الإطار ثمة محاولات متعثرة للربط بين اتجاهات وتيارات ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة Post- modernism، والنظرية النقدية.

إن الحقيقة الثابتة فى مجال بحوث تحليل الخطاب هى أن عدم الاتفاق على مفهوم الخطاب واستخداماته لم تمنع من انتشار بحوث تحليل الخطاب وتناولها لموضوعات ومجالات متعددة، من بينها تحليل الخطاب الإعلامى، الذى يعتبر تطورًا مهمًا لمجال التحليل الكيفى للرسائل الإعلامية وشروط إنتاجها وتداولها وتأثيرها فى الجمهور، فضلاً عن تفاعلاتها مع الظروف التاريخية و المجتمعية.

مجمل التطورات السابقة فيما يتعلق بتطور تحليل النصوص والرسائل الإعلامية انعكست بصور مختلفة ـ وأحيانا متباينة ـ على البحوث والدراسات العربية فى مجال الإعلام، كما كان لها ـ وبدرجات مختلفة ـ نماذجها وممثليها، ولكن بصفة عامة كانت تلك التطورات المنهجية والنظرية تنتقل إلى الدراسات والبحوث العربية بفارق زمنى كبير، كما كان يجرى تبنيها أحيانًا بطريقة آلية وبدون تمثيل لخصوصيات اللغة والثقافة العربية. وتكفى الإشارة هنا إلى أن البحوث الإعلامية العربية، والتى

صدرت باللغة العربية فى الجامعات المصرية استخدمت تحليل المضمون الكمى لأول مرة فى مطلع السبعينيات، وقد هيمن التحليل الكمى للرسائل الإعلامية على دراسات وبحوث الإعلام ـ خاصة رسائل الماجستير والدكتوراه ـ فى مصر خلال السبعينيات والثمانينيات، إلى أن ظهرت فى نهاية الثمانينيات أول دراسة استخدمت تحليل الخطاب اعتمادا على مساهمات اللغويات واللغويات النقدية، حيث استخدمت التحليل الأسلوبى والدلالى. (خليل،١٩٨٩). ولمزيد من التفاصيل عن نشأة وتطور دراسات تحليل الخطاب الإعلامى فى مصر يمكن الرجوع إلى بحث منشور للمؤلف بعنوان: " إشكاليات تحليل الخطاب فى الدراسات الإعلامية العربية، الدراسات المصرية نموذجًا ". (شومان، ٢٠٠٤) .

* * *

الفصل الثانى

مدارس تحليل الخطاب

سبقت الإشارة إلى تعدد وتداخل التخصصات والمدارس اللغوية والألسنية والأدبية والفلسفية التى تستخدم مفهوم الخطاب ومنهجية تحليل الخطاب، الأمر الذى أدى إلى اختلاط ـ وأحيانًا غموض ـ مفهوم الخطاب والأسس المعرفية والنظرية لمنهجية تحليل الخطاب واستخداماته. من هنا تأتى أهمية عرض وتحليل أبرز هذه المدارس والتخصصات فى الدراسات الفرنسية والألمانية والاسكندنافية والأنجلوسكسونية للوقوف على أهم مساهماتها النظرية والتطبيقية فى مجال تحليل الخطاب بعامة والخطاب الإعلامى بخاصة،أى أننى لن أتقيد بعرض وتحليل مساهمات المدرسة الفرنسية فقط فى تحليل الخطاب، انطلاقا من رفضى لادعاء دومينك مانجينو Maingueneau ـ الباحث الفرنسى المتخصص فى تحليل الخطاب ـ والذى يحصر تحليل الخطاب داخل المدرسة الفرنسية وحدها (يوسف، ٢٠٠٥)، على أن رفض ادعاء مانجينو لا يقلل من أهمية مساهمة المدرسة الفرنسية فى اكتشاف وتطوير مناهج وأدوات التحليل الكيفى، بل و الإقرار بأنها صاحبة الريادة فى هذا المجال.

المبحث الأول

مدارس التحليل اللغوى والخطاب الإعلامي

تظهر الأصول النظرية لتحليل الخطاب اللغوى فى أعمال عالم اللغة الشهير فرديناند دى سوسير، الذى أسس المدرسة البنيوية فى دراسة اللغة، والتى تطورت بعد ذلك واهتمت بتحليل الأسلوب، والنص، وبالتطبيقات اللغوية فى مجالات وسياقات مختلفة، لعل أهمها النظريات الأدبية الحديثة والمعاصرة اعتمادًا على مفهوم تحليل الخطاب. (Barton, 2002, pp. 575-598)

فى هذا الإطار ظهر اتجاهان فى دراسة الأسلوبية، الأول أقرب إلى البلاغة، والثانى يدرس علاقة التعبير بالفرد أو الجماعة، وقد أسس شارل بالى علم الأسلوبية اعتمادًا على دراسات سوسير فى اللغة، وقد عرف علم الأسلوبية بأنه العلم الذى يبحث فى لغة جميع الناس بما تعكسه – لا من أفكار خالصة – بل من عواطف ومشاعر، وأن موضوع الأسلوبية هو لغة كل الناس، فجميع الظواهر اللغوية بمستوياتها المختلفة يمكن أن تكشف عن الخواص الأسلوبية فى اللغة، لكن تلاميذ بالى ضيقوا من مجال بحث الأسلوبية وحصروه فى الدراسات الأدبية. كما أخضعوا الجوانب الجمالية للتحليل اللغوى اعتمادًا على مناهج نفسية وبنيوية، وقد أوضح سوسير أن علم الأسلوب يمثل المجال اللغوى كإبداع، فى الوقت الذى يمثل علم اللغة المجال اللغوى كتطور وتاريخ، كذلك ظهرت اتجاهات أحدث اهتمت بشخصية المؤلف وبعملية التفاعل بين المؤلف والقارئ (فضل، ١٩٨٥، ص ص ٢١ ـ ٣٧). وقد اهتم علماء اللغة منذ وقت طويل باللغة المستخدمة فى وسائل الإعلام حيث ركزوا على تركيب الجمل والقواعد النحوية والبلاغية المستخدمة، كما ناقشوا السمات البنائية والبلاغية الخاصة للغة الإعلام أو ما عُرف بالخطاب الإعلامى.

وتعرضت الدراسات اللغوية التقليدية والأسلوبية إلى انتقادات واسعة بسبب تركيزها على اللغة أو الأسلوب بعيدًا عن السياق المجتمعى، وعلاقات القوة داخل

المجتمع. من هنا ظهر ما يعرف بالاتجاهات اللغوية الاجتماعية، والتى اهتمت بدراسة اللغة الإعلامية من منظور اجتماعى ثقافى برز بوضوح فى أعمال عالم اللغويات الاجتماعية بل Bell، والذى اهتم بدراسة علاقات الارتباط بين الملامح اللغوية المتغيرة والملامح المتغيرة للسياق الاجتماعى. وقد خلص على سبيل المثال إلى أن درجة تبسيط نطق نهايات الكلمات فى لغة المذيعين تختلف فيما بين محطات الإذاعة فى نيوزيلندا وفقا للمهن الرئيسية لجماهير المستمعين. **(Faircloughk, 1995, p. 27)**

وتركز دراسات تحليل الخطاب ذات المنحى اللغوى الاجتماعى على النص الكامل سواءً كان مكتوبًا أو منطوقًا، كما تهتم أيضًا بشكل النص،وبنيته وتنظيمه على كل المستويات الفونولوجية ـ علم الأصوات الكلامية – والقواعد النحوية، لكن اللغة هنا تشمل القواعد النحوية وتركيب الجملة ومستويات تنظيم النص فى مفاهيم خاصة، فضلاً عن بنية المناقشات العامة والتى تتجلى من خلال ما هو اجتماعى وسياسى والقواعد المؤسسية لممارسة الحوار **(Curtin, 1996)**.

إن السؤال الرئيسى الذى يسعى تحليل الخطاب إلى الإجابة عليه هو: لماذا أخذ هذا النص هذا الطريق ولم يأخذ طريقًا آخر؟، وترى كوتس جينيفر Coates Jennifer أن إجابة هذا السؤال تتطلب تحليل ستة مستويات هى :

- أن الخطاب يُشكَّل من خلال الكلمة، كما أنه يُشكِّل الكلمة.
- اللغة تشكِّل الخطاب والخطاب يشكل اللغة.
- الممارسة تشكِّل الخطاب، كما أن الخطاب يشكل الممارسة.
- الخطاب يشكَّل من خلال الخطاب السابق – خطاب الماضى – والخطاب يشكِّل إمكانيات خطاب المستقبل.
- الخطاب يشكَّل من خلال وسيلته،كما أن الخطاب يشكِّل إمكانيات هذه الوسيلة.
- الخطاب يشكَّل بواسطة غرضه، كما أن الخطاب يشكِّل الأغراض الممكنة.

وتؤكد كوتس جينيفر أن الخطاب يرتبط باللغة والدراسات الأدبية ودراسات التعبير والاتصال وتخصصات أخرى متعددة. (Jennifer, 1988,237 - 247)

وقد اقترح الباحثون فى اجتماعية اللغة منهجًا مرنًا يتمثل فى الخطوات التالية :

أ- انتقاء المتحدثين والظروف والمتغيرات اللغوية.

ب- جمع النصوص.

جـ التعرف على المتغيرات اللغوية وبدائلها فى النصوص.

د ـ الدراسة الإحصائية.

هـ ـ تأويل النتائج. (فضل، ١٩٩٢، ص ٢٣).

وأدت هذه المقترحات إلى تطور الدراسات اللغوية وظهور التداولية كفرع علمى من مجموعة العلوم اللغوية التى تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام، وهذا العلم الذى أخذ ينمو فى العقود الثلاثة الأخيرة ذو طبيعة عبر تخصصية تغذيه جملة من العلوم، من أهمها: الفلسفة وعلم اللغة والانثروبولوجيا وعلم النفس والاجتماع. (فضل، ١٩٩٢).

ومهدت المساهمات السابقة إلى ظهور مدرسة اللغويات النقدية critical linguistics فى السبعينيات من القرن العشرين، بجامعة إيست إنجليا على يد مجموعة من الباحثين، وتقوم هذه المدرسة على محاولة الدمج والتأليف بين الدراسات اللغوية النظامية والدراسات اللغوية الاجتماعية والمناهج النقدية والدراسات السميولوجية، حيث تنطلق من تعدد وظائف النص، خاصة النص الإعلامى،فهناك الوظيفة الفكرية – ووظيفة تكوين الأفكار – ووظيفة تصوير العلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية، كما تنظر هذه المدرسة إلى النصوص كنتاج لاختيارات من بين نظم الخيارات المتاحة من ناحية النحو ومفردات الكلمات وما إلى ذلك، ويعتبر الخطاب هنا مجالاً للعمليات الأيديولوجية وللعمليات

اللغوية..مع وجود علاقة محددة ومقررة بين هذين النوعين من العمليات، وبشكل محدد يمكن أن تحمل الاختيارات اللغوية داخل النصوص معنًى أيديولوجيًا، كما تركز تلك المدرسة على عملية الإقرار أو التقديم representation أى طريقة عرض الأحداث، والوظيفة الفكرية أى المتعلقة بتقديم فكرة معينة. (Howley, 1999 - Fairclough, 1995, p. 23)

ولعل ترو Trew، وهودج و كريس Hodge and Kress من أبرز رموز تلك المدرسة، حيث قدم الأول أبحاثًا عديدة حول مسيرة الخطاب فى الصحف،ركز فيها على عملية تحويل المواد الإخبارية الواردة من وكالات الأنباء والمصادر الأخرى إلى تقارير إخبارية منشورة، والتغييرات التى تخضع لها القصة الإخبارية من تقرير لآخر،أو من التقرير الصحفى إلى التحليل المعمق.. إلى المقالات الافتتاحية، عبر فترة زمنية معينة، فقد يحذف الفاعل بهدف ترك القوى الفاعلة أو الجهات المسئولة غير محددة، كما قد تعاد صياغة الجمل أو يقع الاختيار على كلمات محددة بطريقة معينة تتضمن اختيارات وتحيزات أيديولوجية، بينما ركز كل من هودج و كريس على سلاسل التناص فى الممارسات الخطابية، وعلى أهمية اختيار المفردات اللغوية والضمائر والأفعال المساعدة. وميّز هودج و كريس بين النص والخطاب من ناحية المفاهيم والإجراءات النظرية والمنهجية والأهداف التى يسعى كل منهما إلى تحقيقها، فالخطاب هو العملية الاجتماعية التى تكون النصوص متضمنة فيها، بينما النص هو جزء من الخطاب، أى أن النصوص هى تجليات للخطاب، كما ميّز هودج وكريس بين الخطاب والأشكال الأدبية رغم أنهما يحملان معانى اجتماعية. (Gunter and Robert, pp. 67-73- penny cook, 2002)

وقد بلور كل من هودج وكريس نموذجًا لتحليل الخطاب من خلال النظر إلى اللغة كأيديولوجية، تمامًا كما فعل هاليداى Holliday فى السبعينيات من القرن العشرين، حيث استفادا من نظرياته فى تحليل الخطاب، واتفقا معه على أن قواعد اللغة هى اختيارات وليست قواعد، كما أن النحو هو نظرة للواقع وليس عملاً

محايدًا كما يعتقد معظم الناس، لذلك ركزا على أن اللغة والتركيبات اللغوية يمكن أن تتحدد وتتمفصل مع الأيديولوجية، وتمنح الشرعية لمؤسسات السلطة فى المجتمع، ويتكون نموذج هودج و كريس من شبكة من المفاهيم تشمل الفاعلين والأفعال أو العمليات والمفعول به، والعلاقات بينها. وعلى سبيل المثال عندما نقرأ جملة (البوليس أطلق النار على المشاغبين)، فإن الفاعل واضح بينما المشاغبون هم المتأثرون بالفعل، لكن عندما نقرأ (ويجرى رجل الشرطة)، فإننا لا نعرف ما هى طبيعة العلاقة وما هو سياق وهدف قيام رجل الشرطة بذلك، وهل هو هنا فى دور الفاعل أم المفعول به. **(Delinger,1995 - Tankard,1994)**

ويقوم تحليل اللغويات النقدية على أساس النظرية اللغوية " النظامية " systemic **(Halliday 1978)**، فهو يضيف إلى تحليل الإعلام وجهات النظر النظامية، أى وجهة النظر التى ترى :

(١) أن للنص وظائف متعددة، فهو يمثل دائمًا وفى آن واحد الوظيفة الفكرية (Ideational Function) والعلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية

(٢) أن النص نتاج لاختيارات محددة من بين عدة خيارات متاحة، سواء من ناحية النحو أو مفردات الكلمات، وما إلى ذلك.

ويعتبر الخطاب فى ظل هذا التحليل مجالاً للعمليات الأيديولوجية وللعمليات اللغوية، وهناك علاقة محددة ومقررة بين هذين النوعين من العمليات. وتحديدا يمكن أن تحمل الاختيارات اللغوية داخل النصوص معنًى أيديولوجيًا.

ومن التحليلات التى تضيف عمقًا لفهمنا للخطاب، تلك التى تهتم بالإقرار representation (أو طريقة عرض الأحداث) والوظيفة الفكرية (أى المتعلقة بفكرة معينة) – أى كيفية تصوير الأحداث والأشخاص والأشياء بهذه الأحداث بواسطة الجمل البسيطة.

وأساس هذه الفكرة المنطقية هى أن تحويل الأحداث إلى أكواد أو رموز معينة فى

اللغة يترتب عليه اختيارات معينة من بين النماذج التى يتيحها النحو ، وأن هذه الاختيارات لها مدلول أيديولوجى قوى. على سبيل المثال فى برنامج " اليوم " Today على البرنامج الإذاعى BBC Radio 4، وفى حلقة ١١ مارس ١٩٩٣، صدر التعليق التالى عن الأسماك الروسية " الرخيصة " التى كانت تستهدف "إغراق السوق البريطانية : " من العجيب أن (هذا الإغراق) لم يصل إلى المستهلك فى صورة أسعار منخفضة بشكل كبير "، مثل هذه الصياغة تبدو غامضة ومتحيزة أيديولوجيًا، حيث كان من الممكن صياغة هذا التعليق بشكل آخر: " إن التجار الذين يتولون توزيع تلك الأسماك يرفعون الأسعار للمستهلك "، حيث يصبح تسعير الأسماك عملية نشطة تتضمن طرفًا مسئولاً هم الموزعون.

هكذا نجد فى الصياغة الأخيرة أن توزيع الأسماك يرتبط بفعل يتضمن عملية نشطة action process، ولكنها تنعكس على نفسها (أى على توزيع الأسماك)، بينما تتحول عملية التسعير فى الصياغة الاولى إلى تقرير حالة بأن الأسعار لم تنخفض بشكل كبير .

إن التحيز فى الصياغة الأولى يتجسد بوضوح فى تجاهل المسئولية والقوة الفاعلة agency وإذا وجد اتجاه منتظم فى التقارير الإخبارية لمثل هذه الاختيارات بهدف ترك القوة الفاعلة agency والمسئولية غير محددتين، فربما يدل ذلك ـ اعتمادًا على السياق الاجتماعى الثقافى الأوسع نطاقًا ـ على وجود معنى أيديولوجى لتلك الاختيارات. وهناك نوع آخر من التحيز والتحويل يتمثل فى تغيير جملة تركز على الفاعل إلى جملة تركز على المفعول به. على سبيل المثال : بدلاً من " إنهم يغرقون السوق بالأسماك " يذكر " إن الأسماك تغرق السوق ".

وبصورة أكثر تحديدًا، فوفقًا لتعريف " كريس Kress " يتعامل التحليل النقدى للخطاب مع اللغة باعتبارها نمطًا من الممارسة الاجتماعية من بين الأنماط الكثيرة المستخدمة لبيان المراد والتعبير عنه ـ بما فى ذلك الصور المرئية والموسيقى والحركات، ٠٠ إلخ، فالنصوص تنتج بواسطة " متحدثين وكتّاب لهم وضع

اجتماعى معين ". والعلاقات بين المشاركين فى إنتاج النصوص لا تتسم بالتكافؤ دائمًا، بل تتراوح بين التضامن الكامل إلى انعدام المساواة الكامل، وتنبع المعانى من التفاعل فيما بين القراء والمتلقين. وتظهر الملامح اللغوية نتيجة للعمليات الاجتماعية التى لا تأتى اعتباطا أو عن طريق الصدفة. ففى معظم التفاعلات يأتى مستخدمو اللغة ومعهم توجهات مختلفة نحو اللغة، وترتبط هذه التوجهات ارتباطًا وثيقًا بأوضاعهم الاجتماعية، كذلك يجب الاهتمام بالسياق التاريخى بوصفه عنصرًا حاسمًا من وجهة النظر الأيديولوجية والسياسية، وأخيرًا تعتبر دقة التحليل، وتحديد مدى أهمية اللغة، من العوامل المميزة دائمًا للتحليل النقدى للخطاب.

وبالإضافة إلى البنية اللغوية، تلعب الأيديولوجية ideology دورًا مهمًا فى التحليل النقدى للخطاب. ويؤكد (كريس Kress) أن " أى شكل لغوى إذا دُرس منعزلاً فلن يكون له أى معنى محدد وحاسم فى حد ذاته، ولن يحمل أى معنى أيديولوجى ولن يؤدى أى وظيفة "، وبالتالى " فإن مجموعة التصريحات المعينة والصياغات المحددة التى تشكِّل أى خطاب تعبر وفى الوقت نفسه تنظم وفقًا لأيديولوجية محددة"، فاللغة لا يمكن أن تظهر بنفسها فهى تظهر دائمًا بصفتها ممثلة لنظام معين من المصطلحات والتصريحات اللغوية التى تحقق بدورها نظمًا منطقية واستطرادية وأيديولوجية معينة.

على سبيل المثال، يورد كريس جملة " أخبرنى رئيس الشركة " حيث يحتل "رئيس الشركة " المقام الأول ويكتسب الأهمية المتعلقة بذلك، بينما يكون التركيز على المتحدث فى الجملة المكافئة فى المعنى : " علمتُ من رئيس الشركة ".

وبالتالى يشير شكل بناء الجملة إلى الوجود المسبق لاختيار أيديولوجى محدد. كما يشير إلى أو يعبر عن معنى أو محتوى ذى طابع أيديولوجى. فالمتحدث (أو الكاتب) يعبر عن محتوى أيديولوجى فى النصوص وكذلك الشكل اللغوى للنص. "فربما لا يكون انتقاء أو اختيار شكل لغوى معين عملية تلقائية ومباشرة بالنسبة للمتحدث الفرد، ولكن الخطاب سيكون إعادة إنتاج لما سبق تعلمه ".

فالنصوص هى أشكال من تركيبات الجمل المنظمة والمنتقاة. ويعكس " محتوى – هيكل " هذه التركيبات التنظيم الأيديولوجى لمجال معين فى الحياة الاجتماعية.

ولتوضيح وجهة نظره، اختار كريس Kress كمثال نسخة من تقرير إخبارى استخدمت فيه " جملاً يتعدى أثرها المعنى المباشر "، وبالصيغة التى تؤكد على أهمية الفاعل لإضفاء صفة السببية على دور المتظاهرين ضد التمييز العنصرى فى مباراة لكرة القدم. فالمظاهرة التى كانت تعارض فى الواقع مظلمة محددة، ثم تصويرها بواسطة وسائل الإعلام كنتيجة سببتها أفعال المتظاهرين.

فقد وصف التقرير المتظاهرين بشكل عنيف فاعتبرهم " معارضون " .. "يطلقون الشعارات ويطلقون الصفارات .. " حتى إنهم يحاولون " إفساد المباراة .. واحتلال الملعب "، وفى واقعة أخرى : " عصف المتظاهرون بالسياج " حتى إنهم بدأوا فى " هدم السياج ".

يقول كريس Kress :" يتضح من تلك الواقعة بالذات أن طريقة عرض الفعل، سواءً كفعل يتعدى أثره المعنى المباشر له، أو كفعل غير متعدى الأثر as transacitive or as non transacitive، ـ لا تعكس الواقع أو الحقيقة بقدر ما تعكس الكيفية التى يتكامل بها ذلك الفعل المحدد داخل النظام الأيديولوجى للمتحدث، وبالتالى كيفية التعبير عن ذلك الفعل فى سياق حديث معين ".

إن القرار الفعلى من جانب الصحفى أو المحرر بشأن استخدام إما جملة تعبر عن تعدى أثر الفعل لمعناه المباشر أو جملة لا تعبر عن ذلك التعدى، يعتبر مسألة اختيار ولا يأتى صدفة. هذا ما يؤكده كريس Kress . ويقدم " كريس" مثالاً آخر لتوضيح طريقة شائعة لاستخدام الجمل التى لا تعبر عن تعدى أثر الأفعال لمعناها، كالتالى: " بدأت الأمور بطريقة سلمية إلى حد ما .. فأسرعت الشرطة إلى السياج الخلفى وتبعت ذلك مصادمات حيث استمرت المواجهة عدة ساعات، وخمدت الانفعالات ... ".

من المثال الأخير، يتبين لنا أن تبنى الصحفى لهيكل أيديولوجى – خطابى معين – يعبر عن قيم لنظام أيديولوجى معين، وعن " سلطة خطابية " محددة.

ويشير كريس Kress أيضًا إلى أهمية اختيارات المفردات اللغوية، وبنظرة سريعة إلى النص، يتبين لنا أن بعض التقارير " توجهها استعارة المصادمة العسكرية "، حيث يضع الصحفى أحد الجانبين فى دور " العدو " والجانب الآخر فى دور "الصديق أو الحامى". ويكتب كريس : " فالشرطة تحرس المكان "، أى أن الشرطة تمثل المدافعين عن " الخير "، بينما يحاول المعارضون احتلال المكان وتخريبه، أى إنهم يمثلون المعتدين فى هذه الحالة .

ويضيف كريس : " وبهذه الطريقة، تصبح إدراكات أو قراءات الجماهير المتلقية للنشرة الإخبارية للنص مهيكلة بهذا الشكل، بحيث إنهم سيعتبرون أن التقرير يسجل الوقائع كما هى وحسب ". والأكثر من ذلك، فإنهم سوف يفسرون النص بهذا الشكل المتحيز أيديولوجيًا.

ويوضح " كريس " كذلك أن الجزء المرئى من النص التليفزيونى له أيضًا تأثير مهم على تفسير النص. ويتضمن ذلك تصوير المتظاهرين ضد التمييز العنصرى كأنهم عدوانيين، وذلك من خلال عرض بعض اللقطات المتحيزة .

ويذكر كريس أمثلة أخرى مستقاة من تقارير صحفية، حيث يتم باستمرار تقديم السلطات الحكومية ـ كرئيس الوزراء مثلاً ـ فى مواقف محورية، فى الوقت الذى تصور الأحداث الرئيسية كالمباحثات أو ردود الفعل العنيفة المفاجئة أو الاضطرابات النقابية كأنها تحاول التأثير على رئيس الوزراء.

ويخلص " كريس " مما سبق إلى أنه " من وجهة النظر الأيديولوجية : يؤدى ذلك إلى تقديم رئيس الوزراء (من خلال استعارة مبنية على النص وكيفية صياغة الجمل، بالإضافة إلى اللقطات المرئية) فى صورة أهم شخص فى الموضوع. ورغم ذلك، فهو فى وضع الخاضع للتأثيرات، ولا يتصرف من تلقاء نفسه بل يستجيب للضغوط أكثر من استهلاله للأفعال، مع وجود شبكة من العلاقات المتفاعلة حوله ".

ونتيجة لذلك تبدو " التصرفات الرئيسية للعاملين بالحكومة ـ نظرًا للاستعارة المبنية على النص وصياغة الجمل والمشاهد المصورة ـ كأنها ليست تصرفات حقيقية، بل مجرد وساطة أو تسهيلات أو علاقات متشابكة فيها بين الأفراد والمجموعات والفئات المجردة ". **(Kress,G. and Hodg,R. 1979)**

على مستوى آخر قام (ترووTrew) بأبحاث مثمرة عن مسيرة الخطاب فى الصحف discourse in progress ، أى تحويل المادة الإخبارية الواردة من وكالات الأنباء والمصادر الأخرى إلى تقارير إخبارية والتحويلات التى تخضع لها القصة الإخبارية من تقرير لآخر، أو من التقارير إلى التحليل العميق إلى المقالات الافتتاحية، عبر فترة زمنية معينة.

ويشير " ترو " Trew إلى تغطية التايمز The Times لأحداث إطلاق الشرطة النار على المتظاهرين فى زيمبابوى سنة ١٩٧٥ . فقد جاء التقرير الأول تحت العنوان التالى : " المتظاهرون الأفارقة يسقطون قتلى برصاص الشرطة أثناء اجتماع زعماء ANC". ويتضح لنا أن هذا العنوان يركز على عملية التظاهر، ويقلل من أهمية فعل الشرطة من الناحية الإعلامية – حيث وضعت كلمة " المتظاهرون " فى أول العنوان، بينما ذكرت الشرطة فى وسط العنوان .

وفى الفقرة الأولى من التقرير المشار إليه جاء ما يلى : " قتل أحد عشر إفريقيًا وأصيب خمسة عشر آخرون عندما فتحت الشرطة الروديسية النيران على حشد من ألفى شخص تجمعوا فى ناحية " أفريكان هايفيلد African Highfield" بمدينة ساليسبورى Salisbury عصر هذا اليوم ".

فى هذه الفقرة الأولى نجد التركيز على الحشد المشاغب رغم التصريح بوجود الشرطة بموقع الحادث، إلا أن دور الشرطة يبدو مقتصرًا على فتح النيران على المشاغبين، ولا يعزى إليه قتل وجرح المصابين.

وفى إحدى المقالات الافتتاحية تحول الحدث إلى العنوان التالى: " عمليات الشغب وفقدان الحياة المؤسف فى ساليسبورى "، ويضع المقال المسئولية على

الشقاق الحزبى، بينما يتجاهل الشرطة كعامل مسئول عن الحادث. وهذه الأمثلة هى جزء من سلسلة أكثر تعقيدًا من التحويلات عبر الزمان التى تستهدف إرجاء مسئولية الشرطة إلى الخلفية. وتعتبر هذه التحويلات عمليات أيديولوجية بقدر ما هى عمليات لغوية، فهى تشكل الأحداث بطريقة مشابهة للإطارات الأيديولوجية سابقة البناء لتمثيل العلاقات السياسية فى جنوب إفريقيا.

وتتضمن العمليات اللغوية إعادة صياغة للجمل (أى تغيير كلماتها)، بالإضافة إلى تغييرات نحوية – وعلى سبيل المثال نجد أن عبارة " فقدان الحياة " استخدمت فى المقال السابق بدلاً من عبارة " قتلوا بالرصاص ".

وإلى جانب عمليات التحويل والتحوير اللغوى والنحوى يؤكد علماء اللغويات النقدية Critical linguistics على أهمية اختيار مفردات اللغة (المعجمية) فى عمليات التصنيف. على سبيل المثال : قد تتناول دراسة عن التمييز على أساس النوع (رجال ونساء) فى التقارير الإعلامية كيف تعمل الاختلافات فى مفردات اللغة المستخدمة للإشارة إلى الرجال من ناحية وإلى النساء من ناحية أخرى على تصنيف البشر وفقًا لنظم التصنيف القائمة مسبقًا، والتى تحمل فى طياتها اتجاهات أيديولوجية قوية. فقد تطرح تلك الدراسة السؤال التالى : هل يشار إلى النساء عادة من ناحية وظيفتهن الأسرية (كزوجات أو أمهات) ، أم من نواحى اهتماماتهن الأخرى، أم من ناحية علاقاتهن بالرجال؟

ومن المفيد دمج مثل هذه الأسئلة مع تحليل أنماط العمليات وأنماط المشاركين، مثل : ما نوع المشاركين، وفى أى نوع من العمليات ينخرط الرجال / النساء بصفة أساسية؟. على سبيل المثال : هل هناك نفس الاحتمال أن يشارك كل من الرجال والنساء فى العمليات النشطة؟ active processes، وعندما يؤدى الرجال / النساء دور الفاعلين / الفاعلات actors، ما هى نوعية العمليات التى يشاركون / يشاركن بها؟، هل تتضمن هذه العمليات "الابتسام والصريخ" أم "النقاش والانتحـاب". (Fairclough,1995)

إن الجملة التى تجعل من الحدث رمزًا فكريًا بالنسبة لنوعية عملية معينة تقوم أيضًا بتقدير ـ فيما بين الأشخاص ـ مدى حقيقة أو احتمال الاقتراح المكود encoded والعلاقة القائمة بين المنتج للنص والموجه إليه النص.

ويشير فيركلاو إلى أعمال فلاولر Flwoler والتى اقترح فيها مفهوم " الشكلية " modality، والذى يقصد به بشكل عام تغطية ملامح النصوص التى " تعبر عن مواقف المذيعين والكتّاب نحو أنفسهم ونحو المحاورين لهم ونحو الموضوع المعنى". وتتضمن "الشكلية" اختيارات الضمائر pronouns، والأفعال المساعدة الشكلية modal auxiliaries، وأفعال الحديث وغيرها الكثير.

ورغم أهمية الاستنتاجات التى توصل إليها الباحثون اعتمادًا على الأطر النظرية والنماذج التحليلية لمدرسة اللغويات النقدية، إلا أنها تعرضت لانتقادات عديدة نظرًا لعدم اهتمامها ببحث القواعد المجردة للتركيب اللغوى والنحوى، وكذلك لعدم اهتمامها بطبيعة فهم أو تأويل الجمهور للنصوص التى تشكل الخطاب الإعلامى، أى أن التحليل ينحصر فى إطار العمليات التى يقوم بها المحللون ويركز على عمليات إنتاج وتداول النص بغض النظر عن إدراك وتفسير الجمهور المتلقى للنصوص الإعلامية.

لذلك يقترح صلاح فضل على الدارس البلاغى للخطاب أن يتبنى منهج اللسانيات الوصفية ببعده الديناميكى المفتوح، محاولاً تحديد الأشكال اللغوية المناسبة فى النص، ودون إغفال للمحيط الذى وردت فيه، وذلك للكشف عن الإطرادات الظاهرة ووصف حركتها، فمحلل الخطاب يعتبر الكلمات والعبارات والجمل التى تظهر فى المدونة النصية لخطاب ما دليلاً على محاولة المنتج توصيل رسالة إلى المتلقى، مما يجعله يعنى على الخصوص ببحث كيفية وصول متلقى ما إلى فهم الرسالة المقصودة من قبل المنتج فى مناسبة معينة، وكيف أن متطلبات المتلقى المفترض تؤثر فى تنظيم خطاب المنتج. وتتخذ هذه المقاربة الوظيفية التواصلية مجالاً

أوليًا للبحث، وبالتالى تسعى إلى وصف الشكل اللغوى ليس كموضوع ساكن، وإنما كوسيلة منظمة ديناميكية للتعبير عن الدلالة المقصودة. (فضل، ١٩٨٥، ص ص ١٢٧ـ١٢٨).

فى هذا السياق تجدر الإشارة إلى ظهور اتجاه قوى ومتنامى فى الدراسات الإعلامية يركز على استقبال الجماهير للنص والممارسات التفسيرية والتأويلية بدلاً من التركيز على تحليل النص.

المبحث الثاني

ميشيل فوكو وتحليل الخطاب

منحت أعمال ميشيل فوكو الخطاب ـ كمفهوم ومنهج للتحليل ـ حياة جديدة وفتحت آفاقًا رحبة أمام الباحثين فى العلوم الاجتماعية، حيث أسس فوكو مفهومًا للخطاب لا يقوم على أصول ألسنية أو منطقية، بل يتشكل أساسًا من وحدات سماها بالمنطوقات، وهذه المنطوقات تشكل منظومات منطوقية تسمى بالتشكيلات الخطابية، هذه التشكيلات تكون دائمًا فى حقل خطابى معين، وتحكمها قوانين التكوين والتحويل. وعلى هذا الأساس فإن الخطاب يختلف عن الجملة والقضية، كما يختلف التحليل الخطابى عن تحليل اللغة والتحليل المنطقى، ذلك أن تحليل الخطاب يعتمد على الوصف الأركيولوجى والتحليل الجينولوجى – ويسعى الأول إلى سن قوانين ندرة المنطوقات وتراكمها. أما الثانى فهو يعنى البحث عن البدايات لكن بطريقة غير تقليدية تختلف عن الطريقة التقليدية التاريخية، حيث تركز على تبين الانقطاعات والفواصل – من أجل الكشف عن ندرة وخارجية وتراكم وقبلية الخطابات أو بتعبير دقيق يقوم على التحليل التاريخى للخطابات، ولا تعود مرجعية الخطاب إلى الذات أو إلى المؤسسة أو إلى الصدق المنطقى أو إلى قواعد البناء النحوى، وإنما إلى الممارسة. (بغورة، ٢٠٠٠، ص ص ١٢٤ – ١٤٤)

وركز فوكو على نقد وهدم التفكير الغربى الذى كان دائمًا يركز على معنى أن نكون بشرًا بدلاً من كيف نكون بشرًا، وفى هذا السياق أكد على وفاة الفاعل الموحد أو الوحيد وظهور كثير من الفاعلين. فالبشر ليس هم الفاعل الوحيد بل هم منتجات الممارسات الخطابية، كذلك فإن الموضوعات ليست حقائق اجتماعية بل هى عملية تتعلق بكيف يأتى الفاعلون بالأشياء إلى الوجود من خلال اللغة، لذلك يمكن القول بوجود علاقة بين السلطة أو القوة power واللغة، وبالتالى يجب اعتبار الفاعلين تكوينات اجتماعية تم إنتاجها من خلال الخطابات الاجتماعية التى تضع هذه التكوينات الاجتماعية فى حقل علاقات القوة. (Langer, 1998)

ولعل تهميش فوكو لدور البشر كفاعلين اجتماعيين هو ما عرضه لكثير من النقد، بالإضافة إلى تعدد وغموض بعض المفاهيم الأساسية التى اعتمد عليها فى تحليله للفكر الغربى، وفى مقدمتها مفهوم الخطاب ذاته، حيث أشار إلى الخطابات كتصريحات، وعرف تحليل الخطاب على أنه تحليل للأداء الشفوى، كما اعتبر الخطابات عوامل نشطة لتكوين وبناء المجتمع مع تبعيتها فى الوقت نفسه لمجتمع معين أو مؤسسة معينة. وفى موضع آخر اعتبر الخطابات تعبيرًا عن علاقات القوة،بينما قال فى سياق آخر: إن الخطابات تشير إلى كل ما يمكن التفكير فيه أو كتابته أو قوله بشأن موضوع أو شىء معين.

وفى موضع ثالث يعرف فوكو الخطاب بأنه كلمة تطلق على مجموعة من التصريحات التى تنتمى إلى نفس التكوين الخطابى، أى أن الخطاب يتكون من عدد محدود من التصريحات التى يمكن تحديد شروط وجودها. فالخطاب بهذا المعنى ليس شكلاً مثاليًا غير محدد الزمن، بل إنه من بدايته إلى نهايته شكل تاريخى، أى قطعة من التاريخ، وهو - أى الخطاب - يضع حدوده الذاتية، وتقسيماته وتطوراته والصيغ المجددة لصفته الزمنية.(Jorgensen and Phillips, 2002)

ويرى الزواوى بغورة إلى أن الخطاب عند ميشيل فوكو :

أ- يشكل مجموعة من المنطوقات، وهذه المجموعة هى أساس التشكيلة الخطابية والتى تشكل ميدان الخطاب، وتكون محكومة بمنطوقات التكوين.

ب- لا يمكن لنا فصل مفهوم الخطاب عن مفهوم اللغة، رغم الفارق الأساسى بينهما، فإذا كانت الخطابات مجموعات منطوقية متناهية، فإن اللغة نظام مفتوح ومحكوم بالاختراق والتجاوز.

ج- الخطاب والمنطوق والتشكيلة الخطابية تتنافى وما تعودنا على تسميته - فى إطار تاريخ الفكر- بالنص والأثر والقضية والجملة والمجال العلمى أو الفرع العلمى، فهذه المفاهيم كلها فى نظر فوكو لها علاقة بوهم الأفكار الاتصالية،

وما يريد تأسيسه هو تاريخ الوقائع والانفصالات، لذلك اعتمد – فوكو – على مفهوم الخطاب كحدث تاريخى يطبعه الانفصال والقطيعة.

د- إن المفهوم الخاص بالخطاب لا يمكن اشتقاقه مباشرة من الألسنية أو التحليل الخطابى أو فلسفة التحليل، ولكن فى نفس الوقت لا يمكن لنا فصله عن مجمل الحوارات والمناقشات والأسئلة المطروحة وكذلك المناقشات والأسئلة فى هذا الميدان والتى كانت موضع تفكير فوكو، وإن بطريقة مختلفة وبمفاهيم مغايرة.

هـ- هذه الطريقة تظهر فى كثير من الموضوعات مثل : موضوع مرجعية المنطوق، التى لا تحيل لا إلى النحو ولا إلى المنطق بل إلى المجال الخطابى والممارسة الخطابية، التى يتم وصفها بمنهجية خاصة، أطلق عليها اسم الأركيولوجيا، ثم أضاف لها الجينولوجيا. (بغورة، ٢٠٠٠، ص ص : ١١١-١١٢).

ويهدف تحليل الخطاب لدى فوكو إلى تنوير البنية غير الواعية التى تحد من طريقة تفكيرنا. وفى كتابه الشهير (أركيولوجيا المعرفة) حاول فوكو إنشاء طريقة غير تأويلية وغير جدلية وغير مرتبطة بنظرية المعرفة لوصف وتصنيف التكوينات الخطابية التاريخية (Langer, 1998). ويتبنى فوكو الفرض العام للنزعة التفسيرية الاجتماعية والذى يقرر أن المعرفة ليست مجرد انعكاس للواقع، فالحقيقة بناء خطابى والنظم المختلفة للمعرفة تحدد ما هو حقيقى وما هو غير حقيقى أو زائف،فى هذا السياق يسعى فوكو للبحث فى بنية النظم المختلفة للمعرفة، أى القواعد العامة التى تحكم ما يمكن وما لا يمكن قوله، والقواعد التى تحدد ما يعتبر صحيحًا أو غير صحيح. وإذا كنا نملك من حيث المبدأ عددًا لا نهائيًا من الطرق لصياغة المنطوقات أو التصريحات statements، حيث نجد أن التصريحات المنتجة فى مجال معين تميل إلى التشابه والتكرار، بل هناك تصريحات لا تحصى لا يتم ذكرها أبدًا، ولن تقبل أبدًا كتصريحات ذات معنى،فالقواعد التاريخية للخطاب المعنى تحدد ما يمكن قوله.(Jorgensen and Phillips, 2002)

إن تحليل الخطاب يتعارض مع منهج التحليل المنطقى ومنهج التأويل، إذ لا يبحث فى باطن الخطاب ولا خلف اللغة لكنه يتوقف عند حرفية الخطاب، عكس التأويل الذى يبحث فى باطن الخطاب مسائل المعنى والمضمون والفكرة المستترة وراء اللفظ. وقد صاغ فوكو مجموعة من المبادئ للتحليل الأركيولجى هى: الندرة، والخارجية، والتراكم، والقبلى التاريخى.. حيث أكد فوكو أن تحليل المنطوقات والتشكيلات الخطابية يسعى إلى سن قانون الندرة.

يقول فوكو: " وعلى هذا الأساس فإن الخطاب يصبح ثروة لا متناهية وكنزًا لا ينفد، بل ثروة متناهية ومحدودة ومرغوبة لها قوانين تحكم ظهورها وتحكم أيضا شروط تملكها واستثمارها" ويضيف فوكو: " لا يعنينى فى شىء أن أكتشف ما يجعل من قول ما قولاً صحيحًا، أو ما يسمح بإمكانه، بقدر ما يعنينى إبراز شروط انبثاق المنطوقات، وقانون تواجدها مع منطوقات أخرى، والشكل النوعى لنمط وجودها، والمبادئ التى تستمر وفقها فى البقاء وتتغير وتندثر ". (بغورة ٢٠٠٥، ص ص ١١٨ـ١٢٠).

ويمكن القول بدون مبالغة أن أغلبية مدارس تحليل الخطاب المعاصرة تتبع مفهوم فوكو للخطاب بصفته مجموعة من المنطوقات (التصريحات أو التعبيرات) الملتزمة نسبيًا بقواعد معينة، والتى تفرض حدودًا على عملية صنع المعنى، ويرى Jorgensen and Phillips أن مدارس تحليل الخطاب تركز على أفكار فوكو التى تعتبر الحقيقة شيئًا خطابيًا، ولكنها تختلف مع اتجاهه نحو تعيين نظام واحد للمعرفة فى كل حقبة تاريخية، وعوضًا عن ذلك ترسم بعض مدارس تحليل الخطاب صورة مركبة ينشط فيها النزاع بين الخطابات المختلفة التى توجد جنبًا إلى جنب أو تتصارع على الحق فى تعريف الحقيقة. **(Jorgensen and Phillips, 2002)**

وبغض النظر عن هذا الاختلاف، فإن فوكو قد طوّر فى مؤلفيه (أركيولوجيا المعرفة، وإرادة المعرفة) نظرية مهمة للسلطة (القوة) power تتجاوز المفاهيم

والنظريات التقليدية التى تحصر السلطة فى الدولة أو فى المجال السياسى أو الاقتصادى، وبدلاً من تناول وكلاء السلطة أو هياكل السلطة كفئات أولية أو تناول السلطة كشىء واحد، طرح فوكو مفهومًا متعددًا للسلطة، فثمة سلطات متغلغلة ومنتشرة فوق الجسد الاجتماعى. إن السلطة عند فوكو ممارسة، وممارسة خطابية، إن السلطة مثل الخطاب لا تنتمى إلى وكلاء معينين مثل الأفراد أو الدولة أو المجموعات ذات المصالح الخاصة، بل تنتشر عبر الممارسات الاجتماعية المختلفة، ومن ثمّ يجب عدم فهم السلطة كقوة استبدادية فقط، ولكن كقوة منتجة. فالسلطة تشكل الخطابات والمعرفة والكيانات، حيث يقول فوكو: "إن الذى يجعل السلطة نافذة ومقبولة حقيقة أن السلطة لا تفرض علينا فقط كقوة تقول لا، ولكنها تخترق وتنتج أشياء وتبعث المتعة وتُكوّن المعرفة وتنتج الخطاب، لذلك يجب اعتبار السلطة كشبكة منتجة تنتشر عبر الجسد الاجتماعى أكثر من كونها حالة سالبة وظيفتها الكبت ".

ويضيف فوكو أن السلطة توفر ظروف إمكانية تشكيل الجانب الاجتماعى، ففى نطاق السلطة يتم إنتاج عالمنا الاجتماعى وتنفصل الأشياء عن بعضها البعض، وبالتالى تكتسب خصائصها الفردية والعلاقات التى تربط فيها بينها. وعلى سبيل المثال أصبحت الجريمة تدريجيًا مجالاً له مؤسسته الخاصة (أى السجون)، وأفراده (أى المجرمون)، وممارساته المعينة، ومنها على سبيل المثال: (إعادة التأهيل الاجتماعى). كذلك ترتبط السلطة بالمعرفة، فالسلطة والمعرفة كل منهما يفترض وجود الآخر. وعلى سبيل المثال يصعب تصور نظام السجن الحديث بدون علم الجريمة. (**Jorgensen and Philips, 2002**).

والواقع أن مفهوم المعرفة والسلطة (القوة) يحتل مكانة مركزية عند فوكو، حيث ناقش كافة أشكال السلطة، وقد حدد مفهوم المعرفة ـ السلطة بالجمع والربط بينهما لا بالفصل والتمييز، كما هو الحال عند الفلاسفة والباحثين الماركسيين أو المنتمين

لمدرسة فرانكفورت (بغورة، ٢٠٠٠، ص ص ٢٣١- ٢٤٣). وقد عارض فوكو فكرة أن السلطة مساوية للعنف والإخضاع والهيمنة كقاعدة أساسية، بل منح السلطة دورًا إيجابيًا، دور الإنتاج دون إهمال للعنف كممارسة أو كحل تلجأ إليه السلطة فى بعض الأحيان، ثم يعرف السلطة بأنها مجموعة من علاقات القوى ضمن استراتيجيات محددة (بغورة، ٢٠٠٠، ص٢٣٣)، لكن قد تتمفصل السلطة والمعرفة فى الخطاب.

يقول فوكو": يجب ألا نتخيل عالمًا للخطاب مقسمًا بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض، أو بين الخطاب المسيطر والخطاب المسيطر عليه، بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل فى استراتيجيات مختلفة، وذلك لأن الخطابات عناصر أو كتل تكتيكية فى حقل علاقات القوى، قد تكون هناك أشكال متباينة منها وحتى متناقضة داخل الاستراتيجية الواحدة نفسها، وبالعكس يمكن أن تتنقل هذه الخطابات بين استراتيجيات متناقضة دون أن يتبدل شكلها (بغورة، ٢٠٠٠، ص ٢٧٨). ويخلص الزواوى إلى أن الخطاب ليس فقط موضوعًا من الموضوعات كالمعرفة والسلطة والذات، بل الحقل أو الميدان الذى منه تتمفصل المعارف والسلطات والذات، لذلك لا يمكن أن نقول إن هناك خطابات مقبولة وأخرى مرفوضة. (بغورة، ٢٠٠٠، ص ٢٧٨).

هكذا يمكن القول أن فوكو اعتقد أن السلطة أو القوة مسئولة عن صنع عالمنا الاجتماعى، وعن الطرق المعينة التى يتشكل بها العالم والتى يمكن التحدث عنه بها، مع استبعاد الطرق البديلة للتكوين أو الحديث. إذن فالسلطة قوة منتجة ومقيدة فى آن واحد،وقد تبنى كل من لاكلاو وموف Laclau and Mouffe مفهوم فوكو للسلطة وأسسا عليه نظرية الخطاب وعلم النفس الخطابى، بينما اتخذت مدرسة تحليل الخطاب النقدى موقفًا مزدوجًا تجاه تصور السلطة لدى فوكو. **(Jorgensen and Phillips, 2002)**

أما بالنسبة للمعرفة فقد قرنها فوكو بالسلطة، ونتيجة لذلك أصبحت السلطة مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بالخطاب، حيث تسهم الخطابات بصفة رئيسية فى إنتاج شخصيتنا كتابعين أو أدوات subjects، وأيضًا إنتاج الموضوعات أو الأهداف objects التى نستطيع أن نتعرف عليها، كذلك فقد كان لتأثير مفهوم فوكو للسلطة والمعرفة تأثير كبير على تصوره للحقيقة truth، حيث يزعم فوكو أنه لا يمكن التوصل إلى الحقيقة الشاملة طالما أنه لا يمكن التحدث من موقع خارج الخطاب، ومن ثمّ لابد من تحديد الحقيقة أو تمثيلها. ويعتقد فوكو أن تأثيرات الحقيقة تنشأ فى إطار الخطابات، لكن الأعمال الأولى لفوكو مثل: (أركيولوجيا المعرفة) تصور الحقيقة باعتبارها نظامًا من الإجراءات لإنتاج وتنظيم ونشر المنطوقات، بينما يربط فوكو فى أعماله الأخيرة بين الحقيقة والسلطة، حيث أكد أن الحقيقة مدمجة ومندمجة بواسطة نظم السلطة. (Jorgensen and Phillips, 2002)

ولاشك أن أعمال فوكو قد أحدثت تأثيرات معرفية ومنهجية واسعة، كما أثارت جدلاً واسع النطاق وخضعت لقراءات متعددة، فقد اختلف الباحثون حول تصنيف مساهمات فوكو، فهناك من يرى أنها تدخل فى سياق ما بعد الحداثة، بينما يعتبره آخرون ما بعد بنيوى،لأنه يؤكد على الوجود الإنسانى اعتمادًا على أشكال المعرفة والخطابات التى تعمل من خلال اللغة. إن اللغة والخطابات تحدد الواقع بالنسبة لنا، كما أن الخطاب يشكل هويتنا وسلوكنا.. فالخطابات تحدد الحياة الاجتماعية من حولنا.. وتحدد مَن نحن وطريق حياتنا.. إن الخطاب يشكل هويتنا وسلوكنا كما ينعكس فى الصراع حول السلطة. (Tolson, 1996, p.234, pp.421-422).

من جانب آخر تعددت محاولات قراءة وفهم أعمال فوكو، وقد أدت بعض تلك القراءات إلى تطوير لبعض مفاهيم فوكو نفسه، حيث أعاد بعض الباحثين تعريفها وتوظيفها فى مجالات متنوعة من بينها بحوث ودراسات تحليل الخطاب الإعلامى،

حيث يمكن القول بأنه لاتوجد دراسة فى تحليل الخطاب الإعلامى أو فى التحليل الكيفى لمضامين وسائل الإعلام إلا وتستفيد -بشكل مباشر أو غير مباشر- من أعمال فوكو، رغم أنه لم يكتب عن وسائل الإعلام أو الثقافة الشعبية بشكل مباشر، وتبدو تأثيرات فوكو واضحة فى أعمال تحليل الخطاب الإعلامى التى قدمها علماء اللغويات خاصة اللغويات الاجتماعية واللغويات النقدية، كما ستظهر بوضوح فى أعمال فيركلاو، وفان ديك وآخرين. (انظر المباحث : السادس والسابع والثامن من هذا الفصل).

المبحث الثالث

التحليل السميولوجى للخطاب الإعلامي

السيميولوجيا Semiology والسيميوطيقا مصطلحان منقولان عن الإنجليزية، وهما بدورهما منقولان عن الأصل اليونانى Semeion بمعنى الإشارة أو العلامة، ولذلك فقد ترجم المصطلح إلى العربية أحيانًا بعلم الإشارة وأحيانًا أخرى بعلم العلامات، وإن فضَّل معظم الباحثين العرب ترجمتها كما هما فى الأصل الإنجليزى أو الفرنسى السيميولوجيا والسيميوطيقا، ويترجمها البعض بالسيمياء، والسيميائية، والرمزية. (النفادى،٢٠٠٢).

ويميز بول ريكور بين علم الدلالة semantics، والسيمياء semiotics. فالسيمياء هو العلم الذى يدرس العلامات. وهو علم شكلى صورى بحيث إنه يعتمد على تجزئة اللغة إلى أجزائها المكونة. أما علم الدلالة فهو علم الجملة، الذى يعنى مباشرة بمفهوم المعنى، ويرى بول ريكور أن هذا التمييز بين علم الدلالة والسيمياء يشكل مفتاح مشكلة اللغة بأسرها. (ريكور، ٢٠٠٣، ص ص ٣٢-٣٣).

وقد أشاعت السميولوجيا وعيًا معرفيًا جديدًا وأثرت مقولاتها النظرية وتطبيقاتها فى علوم وتخصصات كثيرة كالأنثروبولوجيا والتحليل النفسى والتاريخ والخطاب الحقوقى وكل ماله صلة بالآداب والفنون البصرية وغيرها، حيث شكّلت منذ الخمسينيات من القرن الماضى تيارًا فكريًا أثرى النقد الأدبى، ومع ذلك فإن السميولوجيا أو السميائيات ليست تيارًا واحدًا منسجمًا، وليست فكرة معزولة، كما أنها ليست نظرية جاهزة محددة من خلال مفاهيم موحدة، إنها على العكس من ذلك حالة وعى معرفى عُرف بامتداداته فى حقول معرفية متعددة. فالسميائيات ـ فى نهاية المطاف وبكثير من التبسيط ـ ليست سوى تساؤلات تخص الطريقة التى ينتج بها الإنسان سلوكياته أى معانيه، وهى أيضًا الطريقة التى يستهلك بها هذه المعانى، وربما كان هذا التنوع من الأسباب التى فجرت هذا الحقل

فى تيارات متعددة ومتميزة عن بعضها البعض، بل ومتناقضة فيما بينها فى أحيان كثيرة. (www.saidbengrad.com)

ويرتبط مفهوم التأويل بالتصور الذى نملكه عن المعانى وعن شروط وجودها وأشكال تحققها. فالكلمة ـ أى كلمة ـ لا يمكن أن تقف عند حدود التعيين المحايد لمرجع موضوعى مستقل، حيث تشتمل أيضًا على مجموعة من السياقات المحتملة القابلة للتحيين، أو بكلمات مختصرة أن للكلمة معانى متعددة تُدرَك فى إطار ذاتى وثقافى اجتماعى وتاريخى ولغوى.

وقد قسَّمَ إمبيرتو إيكو التأويل إلى تيارين كبيرين، **الأول** : تيار يرى التأويل فعلاً حرًا لا يخضع لأية ضوابط أو حدود، فالسيرورة التأويلية تتطور خارج قوانين انسجام الخطاب أو تماسكه الداخلى.. أما التيار الثانى : فيعترف بتعددية القراءات ولكنه يسجل فى الوقت ذاته محدوديتها من حيث: العدد والحجم وأشكال التحقق، فعلى الرغم من تسجيل أحقية المعنى فى التمنع والتردد فى تسليم أسراره، فإننا لا يمكن أن نتجاهل أنه يحتوى على مجموعة من التعليمات الضرورية التى توجه قراءاته الممكنة.. فى هذا الإطار يجب التمييز بين مستوى دلالى يكتفى بإنتاج وحدات قيمية من طبيعة تعينية و يعرف بالتقرير، وبين مستوى ثانٍ يشير إلى قيم مضافة تُدرج الفعل الإنسانى ضمن وضع ثقافى خاص، ويعرف بمستوى الإيحاء، واستنادًا إلى هذا التمييز يستحيل الحديث عن معنى واحد ووحيد، لأن ذلك يتنافى مع طبيعة المعنى ذاته، فتصور مدلول نهائى كلى وثابت يسير فى الاتجـــاه المعاكـــس للمعنى كمـــا يقـــول رولان بـــارت. (www.saidbengrad.com)

ويعتقد امبرتو إيكو أن التيار الأول ـ أى تيار التأويل الحر غير المحدود ـ يرجع فى أصوله الفلسفية إلى الهرمسية والغنوصية ـ تياران فلسفيان ـ وكلاهما كانا ضد العقلانية الغربية، ومع الاعتراف بأهمية التأويل والحدس وقدرة الإنسان على التمرد على القوانين والنظم العقلانية الجامدة والتأثير فى الطبيعة وتغيير مجراها. ويرى إيكو أن الغنوصية النصية المعاصرة متسامحة جدًا، فبإمكان أى كان أن يكون كائنًا كليًا

شريطة أن يكون لديه الرغبة فى أن يحل قصدية القارئ محل قصدية الكاتب التى تستعصى على الضبط، لحظتها سيصل إلى الحقيقة، حقيقة أن الكاتب لا يعرف ما يقوله، فاللغة هى التى تتحدث عنه. ومن أجل إنقاذ النص ـ أى نقله من وضع الحاضن لدلالة ما والعودة به إلى طابعه اللامتناهى ـ على القارئ أن يتخيل أن كل سطر يخفى دلالة خفية، فعوض أن تقول الكلمات فإنها تخفى ما تقول. إن مجد القارئ يكمن فى اكتشافه أنه بإمكان النصوص أن تقول كل شىء باستثناء ما يود الكاتب التدليل عليه، ففى اللحظة التى يتم فيها الكشف عن دلالة ما ندرك أنها ليست الدلالة الجيدة. إن الدلالة الجيدة هى التى ستأتى فيما بعد، وهكذا دواليك. (إيكو، ٢٠٠٤، ص ص ٣٤ـ٤٣).

وإذا كان موضوع العلامة هو أساس علم السميولوجيا فإن وسائل الإعلام تنقل وأحيانًا تخلق فيضًا من العلامات والرموز. من هنا ظهر الاهتمام بدراسات سيميولوجيا الخطاب الإعلامى، وقد بدأ هذا الاهتمام بدراسة صور الإعلانات أو الصور الإشهارية فى الأربعينيات من القرن العشرين حيث أثير نقاش واسع حول العلاقة بين السميولوجيا واللسانيات،بمعنى هل سيميولوجيا الصورة مجرد نقل حرفى مباشر لمفاهيم اللسانيات مطبق على النماذج البصرية؟ وفى إطار محاولات الإجابة على هذا السؤال تطورت مناهج تحليل الصورة الإشهارية (الإعلانية) استنادًا إلى لسانيات دى سوسير،وشارل بوريس، وأنثروبولوجيا ك. ليفى شتراوس ورياضيات شانون، وأعمال بول ريكور التأويلية، وأبحاث رولان بارت السميولوجية، والأعمال الخاصة بالتواصل التى بدأت فى سنة ١٩٦٠ فى المدرسة العليا بباريس، ويختزل ك. كوست أنواع المناهج التى انبثقت عن هذه الأبحاث فى مجال تحليل الصورة فى منهجين اثنين هما: المقاربة اللسانية، والمقاربة البلاغية التى تزعمها رولان بارت، ثم ظهر بعد ذلك المنهج البنيوى الذى تزعمه لوى بورشر L. porcher، ومنهج السيميائيات السردية الذى تزعمه فلوش J.M. Floch. (غرافى، ٢٠٠٢، ص ص ٢٢١ـ٢٤٩).

وتفاعلت هذه المناهج مع بعضها تأثيرًا وتأثرًا وأنتجت الكثير من البحوث حول خطاب الصورة الإشهارية (الإعلانية) والصورة الفوتوغرافية، والصورة السينمائية، ومع انتشار الصور التليفزيونية اتسع مجال عمل تلك النوعية من دراسات تحليل الصور وعلاقاتها بالنص المصاحب من جهة وعلاقتها بالواقع من جهة أخرى، مع الاستفادة من الاتجاهات المعاصرة فى تأويل الخطاب. فى هذا السياق أفردت مجلة الاتصال الفرنسية عام ١٩٦٤عددًا خاصًا ساهم فيه عدد من الباحثين الذين وضعوا الأسس الأولية لمشروع تحليل الخطاب أهمهم: رايموند وتودوروف، و مينز، ورولان بارت. (القرنى،١٩٩٧، ص ص ٣٧-٥٢).

وقد انصبت أعمال هؤلاء الباحثون على وضع أسس تحليل الخطاب السميولوجى فى وسائل الإعلام، أو بعبارة أدق تحليل الخطاب الإعلامى من منظور سميولوجى فقط، وقد مهدت هذه الاعمال الطريق لظهور مساهمات لعدد كبير من باحثى الإعلام والاجتماع فى السبعينيات والثمانينيات، ربما كان من أبرزهم هارتلى Hartley الذى ركز على تحليل النشرات الإخبارية التليفزيونية من خلال مجموعة من الأكواد والأعراف السميولوجية التى تشكل أساس الملامح اللغوية والمرئية للفقرات الإخبارية، ويتناول تحليل الأكواد المرئية Visual Codes الطرق المختلفة لتقديم الأخبار عبر التليفزيون – مثل " الرأس المتحدثة " (أى صورة مذيع الأخبار أو المراسل وهو ينظر إلى الكاميرا مباشرة) واستخدام الرسوم البيانية والصور الفوتوغرافية الثابتة، والأنواع المختلفة من طرق نقل الواقع أو التقارير الفيلمية film report (على سبيل المثال : تقديم فيلم عن الواقعة الإخبارية فى نفس الوقت، أو تقديم التصوير الخارجى مع تحدث المراسل للكاميرا مباشرة، أو إظهار أحد أفراد الجمهور وهو يتحدث لمراسل غير مرئى)، كما يتناول تحليل الأكواد المرئية إطار الصور العامة أو التركيز على التفاصيل (لإعطاء الصورة العامة أو التركيز على التفاصيل) وتسلسل اللقطات . ويفترض هذا التحليل أن الاختيار من بين الخيارات المتاحة فى نطاق الأكواد المرئية – بما فى ذلك الخيارات التقنية المتعلقة بعمل الكاميرات – يحمل معانى اجتماعية. **(Tuchman, 1978)**

ويقوم هارتلى بتحليل مجموعة من الأكواد والأعراف المرتبطة باللغة، بما فى ذلك تصنيف الفقرات الإخبارية إلى عدد صغير من الموضوعات الرئيسية، وأثر القيم الإخبارية (باعتبارها كود أيديولوجى ideological code) على تناول الموضوعات، وافتراض الاتفاق الجماعى فى الرأى وكيفية التعامل مع الخلاف فى الرأى، وتوجيه الحديث لجمهور المستمعين (أى عمل المذيعين كوسطاء يترجمون الأخبار إلى مصطلحات ذات معنى بديهى بالنسبة للمستمعين)، واستخدام أسلوب محادثى اتصالى، وإعطاء تركيبة معينة للفقرات الإخبارية.

ومن نقاط التركيز النمطية فى التحليل العلاماتى التركيز على الفئات والتصنيفات المقنعة أيديولوجيا، والتى تكون متضمنة فى النصوص الإخبارية، وعلى الفئات البديلة أو المنافسة والتى تكون غائبة أو مكتومة. على سبيل المثال: فإن الفقرات الإخبارية تركز على الناحية الشخصية للخبر حيث تهيمن فئة الشخصية الفردية على قصة الحدث، بينما تكون فئة الفاعل الاجتماعى (وبصفة خاصة الطبقة الاجتماعية) مكتومة أو مسكوت عنها، وكذلك نجد أن كثيرًا من المواجهات التى تظهر على سطح النص بين الحكومة والنقابات، أو الإدارة والمضربين، أو بين الحلفاء الغربيين والحكام الدكتاتورين الأجانب – هذه المواجهات يمكن تشبيهها بمعارضة ضمنية بيننا وبينهم ـ أى بين " نحن " و " هم " ـ (**Fairclough، 1995, pp.22-27**)

وتشير جيسكا فيشمان Jessica Fishman إلى مقولة فرويد Freud بشأن تعارض معرفتنا مع معتقداتنا، فمثلاً قد نكره أن نتخلص من صورة والدتنا الفوتوغرافية، أو نمزقها رغم أننا نعلم أنها ليست والدتنا، فالصورة الفوتوغرافية صورة حية ولها فيما يبدو صلة مادية بموضوعها،حيث تظل الصورة الفوتوغرافية هى النسخة المميزة من الواقع، فهى تعتبر إعادة تقديم للواقع أو نسخة غير مغشوشة من العالم، وبالتالى فإن ما يشكل قدرة الصورة الفوتوغرافية على فرض نفسها كتمثيل للواقع ينشأ جزئيًا من وظيفتها الدلالية المتميزة والمميزة عن المعانى

الضمنية النابعة منها. وقد فسر نورثروب فراى Northrop Frye ذلك تقليديًا بأن المعنى الدلالى لنص معين يشير إلى التعريف أو المعنى القاموسى للكلمة أى المعنى المعترف به والذى يستند إلى النص، بينما يشير المعنى الضمنى إلى المعانى التى تعبر عن آراء شخصية تجاه النص، وأكد فراى أن المعنى الضمنى يثرى النص بمعانٍ إضافية بديلة. (Jessica Fishman, 2001)

و قام رولاند بارثز (Roland Barthes) بتطبيق هذا التمييز على فهم الصورة الفوتوغرافية، حيث ميز بين الوظيفة الدلالية أو المؤشرة للصورة الفوتوغرافية عن مستوى المعنى الضمنى للصورة الذى يتحدد ثقافيًا، لكن سيكولا Sekula يؤكد أن هذا التمييز فلسفى إلى حد كبير. ففى عالم الواقع، لا يمكن أبدًا الفصل التام بين القيمة الدلالية أو الناتجة من الملاحظة الفعلية عن المعنى التقليدى الرمزى، ويشرح بارثز موقفه انطلاقًا من أن الصورة الفوتوغرافية تنقل المنظر نفسه أى الواقع الفعلى، ولكن فى إطار عملية نقل الشىء إلى صورته، هناك تصغير فى الحجم النسبى وفى المنظور وفى اللون، ولكن هذا التصغير لا يشكل تحولاً أبدًا، بل هو عمليه نقل للواقع فى صورة فوتوغرافية عبر تقسيم الواقع إلى وحدات، ثم تشكيل هذه الوحدات كعلامات تختلف اختلافًا بالغًا عن الشىء الذى تبلغه. ويخلص بارثز إلى أن الصورة هى رسالة بلا تشفير، أو هى بتعبير جون تاج John Tagg ليست إنتاجًا بلاغيًا، ولكنها إنتاج مشرب بلباقة بلاغية.

بينما ترى جيسكا فيشمان أن الصور الفوتوغرافية مثلها مثل الأنواع الأخرى من الصور لها معانٍ ضمنيه ثرية، لكن تظل قوة الصورة وقدرتها على الإقناع تعتمد إلى حد كبير على ما تملكه الصورة من دلالة خاصة بها. (Jessica Fishman, 2001)

ويمكن القول بأن من أهم إنجازات أبحاث سميولوجيا الصور والنصوص الإعلامية ـ أى الخطاب الإعلامي ـ التأكيد على الجوانب الثقافية الاجتماعية فى تحليل النصوص الإعلامية من خلال ربط خصائص النصوص بالأيديولوجيات بعلاقات القوى والقيم الثقافية، وانطلاقًا من تسليمها بوحدة الظاهرة الدلالية أيًا

كان لغتها أو شكل تجليها، وكذلك تسليمها بأن اللغة والدين والأسطورة والخرافة وكل السلوكيات الثقافية هى أشكال رمزية. من هنا يمكن تعريف الإنسان بأنه كائن رمزى،ولا يمكن للسلوك الرمزى سوى أن يكون إنسانى، وبهذا المعنى فإن الثقافة ذاتها ليست سوى نسيج مركب من الأنظمة الرمزية على حد تعبير كلود ليفى شتراوس.

خصوصية السميولوجيا :

وبدون الدخول فى تفاصيل معرفية ونظرية كثيرة فإن هناك مجموعة من الاختلافات العميقة بين السميولوجيا وبين مدارس التحليل اللغوى، لعل أبرزها أن الأخيرة تعمل على أساس مفهوم للنصوص متأصل لغويًا، يستبعد تمامًا مفاهيم التعدد الدلالى، والتأويل(الهيرمونطيقا)، وبالتالى إمكانية بل ومشروعية القراءات المتعددة، ولعل مشروعية التأويل هنا تمثل نقطة الخلاف الرئيسية أيضًا بين مدارس واتجاهات السميولوجيا، وبين مدارس تحليل الخطاب الملتزمة أو المتأثرة بمنهجية ميشيل فوكو فى تحليل الخطاب، إذ يرفض فوكو كل أشكال وآليات التأويل، ويعتبره شكلاً من أشكال التحليل والتفسير الذاتى.

بينما يدعو بول ريكور فى المقابل إلى التأويلية، ويرى أن النظريات الرومانسية فى التأويل، ولاسيما عند دلتاى وشليرماخير، قد حاولت إحداث مطابقة وتماه بين التأويل ومقولة الفهم، وعرفت الفهم بأنه التعرف على قصد الكاتب من وجهة نظر المستقبلين البدائيين فى موقف الخطاب. وقد فرضت الأولوية التى منحت لمقاصد المؤلف والمستقبلين أن يكون الحوار نموذجًا لكل موقف فهم، وبالتالى أن تظل التأويلية محصورة فى إطار نزعة نفسانية، حتى وإن لبست لبوس حوار بين الذاتيات المتفاعلة.

ويضيف بول ريكور أن فرضيات التأويلية ذات الطابع النفسى – كشأن فرضيات التأويلية المعاكسة لها – أدت إلى سوء فهم مزدوج لجدل الواقعة والمعنى فى الخطاب، وجدل المغزى والإحالة فى المعنى نفسه، ويقضى سوء الفهم ذو الشقين

هذا بدوره إلى إسناد مهمة مغلوطة للتأويل، ويربط بول ريكور بين التأويلية ومفهومه للخطاب بوصفه واقعة، ومن ثمّ يجب أن يفهم بوصفه معنى، كما أن للخطاب وظيفة إسناد متداخلة ومتفاعلة بوظيفة تحقيق الهوية. من هنا فإن مصطلح التأويل عند بول ريكور لا ينبغى أن ينطبق على حالة فهم جزئية منفردة، أى التعبيرات الحياتية المكتوبة، بل على كامل العملية التى تحيط بالتفسير والفهم، أى أن التأويل هو جدل التفسير والفهم أو الاستيعاب. (ريكور، ٢٠٠٣).

والثابت أن السميولوجيا ومدارس التأويل قد تعرضت ـ وما تزال ـ لرفض شديد وواسع من الباحثين والمختصين فى مجال الدراسات الإعلامية، والذى ينطلقون من مسلمة أساسية وهى إنتاج وتوصيل رسالة واضحة ومحددة للجمهور بهدف التأثير فيه، وبالتالى فإن التسليم بتعددية الدلالات والمعانى، ومشروعية القراءات المتعددة واللانهائية يعنى فشلهم فى القيام بوظيفتهم، وتفتيت الجمهور ليس إلى مجموعات أو قطاعات ذات مصالح متشابهة، بل تفتيت الجمهور إلى ذوات فردية لكل منها استقباله الخاص للرسالة الإعلامية وتأويله. من هنا اتهمت بحوث السميولوجيا فى مجال الدراسات الإعلامية بأنها تمارس ألعابًا حول المعنى والدلالة لن تفيد فى شىء، وأنها ليست أبحاثًا بل محاولات للنقد الفنى، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين الخطاب الإعلامى، والخطاب الأدبى والفنى. فالخطاب الإعلامى يجب أن يكون واضحًا وقاطع الدلالة، كما يجب أن يتجنب الصيغ البلاغية أو الأدبية غير المباشرة.

ولكن أعتقد أن مقولات منتقدى السميولوجيا يمكن مناقشتها والرد عليها، لاسيما وأنها تنطلق من مسلمات تقليدية تجاوزتها الأحداث، فتكنولوجيا الاتصال وشبكة الإنترنت وثورة المعلومات غيّرت كثيرًا من واقع الممارسات الإعلامية عبر العالم، وبالتالى أقترح مراجعة تلك المواقف فى ضوء أن العالم يعيش فيضًا هائلاً من الرموز والمعانى والصور المتعددة، بل والعابرة للقوميات والجنسيات عبر البث الفضائى وشبكة الإنترنت، ومن ثمّ فإن الجماهير العريضة والمتنوعة ثقافيًا عندما

تستقبل هذا الخطاب فإنها ستعيد قراءته، وستنتج قراءات متعددة من شأنها إعادة إنتاج أغلب مكونات هذا الخطاب. إننى هنا لا أدعو لتبنى مدارس السميولوجيا، بل أدعو فقط إلى احترام وتقدير جهودها والتشجيع على استخدامها، فربما تقدم نتائج واستخلاصات مفيدة وقابلة للتعميم، وربما أيضًا تطوّر من أدواتها النظرية والمنهجية فى تحليل الخطاب الإعلامى .

المبحث الرابع

تحليل المحادثة والخطاب الإعلامى

فى إطار نقد وتجديد علم الاجتماع التقليدى اقترح عالم الاجتماع الأمريكى هارولد جارفينكل Harold Garfinkeld فى منتصف الستينيات من القرن الماضى الاهتمام بتحليل الأساليب التى يستخدمها الناس العاديون فى حياتهم اليومية لتفسير أنشطتهم وجعلها مفهومة سواءً لأنفسهم أو للآخرين، وفى هذا السياق صك جارفينكل مصطلح الإثنوميثودولوجيا Ethnomethodolog، والذى يعنى منهجية الجماعة أو بالأحرى منهجية دراسة الإدراك العام للجماعة،وقد نهضت الإثنوميثودولوجيا على خلفية فلسفات متنوعة منها الفينومولوجيا، وفلسفة فيتجنشين، بالإضافة إلى كثير من اتجاهات ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، واهتمت الإثنوميثودولوجيا باللغة والمعنى وبالطريقة التى يسهم بها حديثنا فى خلق واقعنا الاجتماعى، وقد ظلت الإثنوميثودولوجيا اتجاهًا مقبولاً للبحث لدى قلة من الباحثين، إلا أن هذا الاتجاه أصبح جزءًا من قلب نظرية علم الاجتماع بفضل أعمال انتونى جيدنز. (مارشال، ٢٠٠٠، ص ص٨٧ـ٩١).

لكن يلاحظ أن معظم الباحثين الذين استخدموا تحليل المحادثة (CA) Conversation Analysis أحجموا عن مناقشة الأطر النظرية المستخدمة أو الإجراءات المنهجية فى أبحاثهم. كما أن أغلب أبحاث تحليل المحادثة تجنبت الحديث عن الجوانب التطبيقية التى اعتمدت عليها تحليلاتهم. وهذا الأمر يؤدى إلى ارتباك القراء الذين اعتادوا إجراءات معينة فى الأبحاث تقوم على الممارسات الخاصة بالعلوم الاجتماعية مثل: الإطار المنهجى وأدوات التحليل .

إن بحوث تحليل المحادثة لا تهتم بتحديد الفروض أو الإجراءات المنهجية التى تضمن موضوعية البحث، كما لا تهتم بوصف العينات التى خضعت للتحليل أو إجراءات التكويد ولا تستخدم الإحصاء، وبدلاً من ذلك يواجه القارئ بتفاصيل

عن المناقشة ووصف مسجل للتفاعلات التى عادة ما تكون شخصية. ولكن بعض الأعمال الأولى لتحليل المحادثة تضمنت قدرًا من الشرح لأهداف وإجراءات تحليل المحادثة مثل ما قام به Schegloff & Sacks عام ١٩٧٣، كما قام Sacks عام ١٩٨٤ بجمع كثير من الأعمال المنشورة حول منهجية تحليل المحادثة. **(Paul Ten Have, 2005)**

لذلك من الصعب على أى شخص أن يقرأ هذه الأعمال ويجد وصفًا لخطوات يمكن اتباعها لكى يحلل المحادثة بشكل جيد، وهناك عدة أسباب لذلك لعل أهمها أن الإجراءات المستخدمة تكون كافية وتفصيلية بالنسبة لكل مادة على حدة، كما أنها أقرب ما تكون إلى مخطط للتحليل العقلى.

فى ضوء ما سبق يمكن القول بأن تحليل المحادثة هو مسار من نوع خاص للتحليل يمكن استخدامه للوصول إلى نظام خاص للتعرف الواعى على الطرق التى يستخدمها أفراد المجتمع للتفاعل فيما بينهم. إن الهدف المركزى فى بحوث تحليل المحادثة هو وصف وشرح العناصر التى يستخدمها عادة المتحدثون ويعتمدون عليها فى المشاركة العقلية، والتفاعل الاجتماعى المنظم، بالإضافة إلى وصف العمليات التى ينتج بها المتحاورون سلوكهم وفهمهم ويتعرفون من خلالها على سلوك الآخرين.

إن الافتراض الرئيسى عند جارفينكل Garfinkeld هو أن الأنشطة التى تنتج الاتصال والفهم تكون مسئولة عن إنتاج وصنع عمليات عامة متفق عليها، ولا يعنى هذا أن تحليل المحادثة يركز على التحليل فقط أو دور الباحث الذى يقوم بالتحليل ، بل أيضا يركز على طبيعة أدوار وأهداف الأفراد المشاركين فى الحوار، ولذلك فإن هناك مناهج فى تحليل المحادثة تركز على الجانبين، الأول: التحليل العام، والثانى: التحليل الخاص أو التفصيلى الذى يسمح بتحليل أدق يهتم بالظروف المحلية، وهو ما أطلق عليه Sacks المضمون الحر Context Free، والمضمون الحساس أو المرهف Context Sensitive. **(Paul Ten Have, 2005)**

وكما سبقت الإشارة فإن أبحاث تحليل المحادثة لا تهتم بالعينات، أو باستخدام الأداوت التى تستخدم فى البحوث الاجتماعية كالمقابلات والنماذج والأدوات الأمبيريقية فى البحث، بل تركز على تسجيل المحادثات بالصوت أو بالصوت والصورة أو حتى تسجيل النصوص كتابة ٠٠ ويؤكد باحثو تحليل المحادثة أن المادة المسجلة أغنى وأكثر دقة من كل البيانات التى يتم جمعها من الناس أو عبر عينات، فشريط الصوت والصورة يمكن الاستماع إليه أو مشاهدته أكثر من مرة أثناء التحليل، كما أنه يسجل تفاعلات الناس بشكل طبيعى كما هى فى أرض الواقع أو فى حياتهم اليومية، فالباحثون عادة يركزون على كل ما هو أساسى وواقعى.

من هنا تعرّض تحليل المحادثة إلى انتقادات عديدة منها توجيه النقد لأصل التحليل وهدفه، فتفسير معانى كلام المشاركين ليس له نهاية أو لا يمكن أن يكون له نهاية واحدة حتى إذا تم تنظيم المحادثة. كما أن تحليل المحادثة ـ خاصة البحوث الأولى فى مجال تحليل المحادثة ـ لم تتضمن توضيحًا للقارئ حول أهداف البحث واستراتيجيته. وهذه النقطة عَرّضَت بحوث تحليل المحادثة لانتقادات عنيفة، ودفعت بعض هذه الانتقادات إلى تطوير تحليل المحادثة، وشجعت الباحثين على الاهتمام بالظروف المحيطة بالمحادثة.

فى هذا السياق أسس هارفى ساكس قواعد لتحليل المحادثة أو ما يعرف أحيانًا بخطاب الحياة اليومية سواءً كانت أحاديث هذا الخطاب تجرى بشكل رسمى أو غير رسمى، وبغض النظر عن طبيعة الاختلاف أو الاتفاق بين أطراف المحادثة اليومية. و قد استخدم هيريتاج Heritage وجريتباتش Great batch و هاتسبى هذه القواعد لتحليل الأحاديث والحوارات فى وسائل الإعلام المختلفة، وركز هيريتاج على الصيغ التى يستخدمها من يقومون بإجراء الأحاديث ضمن نشرات الأخبار لتلخيص ما قاله المتحدثون، حيث يؤكدون على نواحٍ معينة ويهملون جوانب أخرى،ويرى هيريتاج Heritage أن هذه الصيغ عبارة عن أداة تقنية أو فنية يستخدمها الذين يجرون الأحاديث – المذيعون ـ لإدارة تلك الأحاديث فى نطاق القيود التى يضطرون للعمل فى ظلها.

ويركز هيريتاج على الصيغ Formulations التى يستخدمها من يقومون بإجراء الأحاديث من أجل نشرات الأنباء. وفيما يلى أحد الأمثلة التى قدمها هيريتاج والتى توضح دور مقدمى البرامج أو المذيعين فى إدارة وتوجيه المحادثة :

ـ مندوب الأخبار : هل يسعدك أن يصبح الأمير تشارلز Prince Charles ملكًا لويلز؟

ـ الرجل : إيه يعنى ‥ تعلم أننى لا أهتم من يصبح ملكًا ومن لا يصبح ملكًا.

ـ مندوب الأخبار : تعتقد أن هذا لن يمثل أى فرق بالنسبة لك؟

ويلاحظ أن الصيغة (التى أنهى بها مندوب الأخبار أو المحاور اللقاء هى أداة منتشرة الاستخدام من جانب المندوبين الذين يجرون الأحاديث Interviewers لتلخيص ما قاله المتحدثون Interviewees. حيث تتجه الصيغ نمطيًا إلى التأكيد على نواحٍ معينة مما قيل، أكثر من نواحٍ أخرى، وكثيرًا ما تزيد على ما قيل صراحة، وتنحو باتجاه تقديم فهم خاص من جانب المذيع المحاور لكلام المتحدث. ويوضح المثال السابق ذلك، فالمتحدث لم يقل إن التغيير لن يحدث أى فرق بالنسبة له، وإنما عبّر عن ذلك ضمنيًا.

ويعتقد هيريتاج Heritage أن هذه الصيغ عبارة عن أدوات تقنية، تستخدم فى نطاق قواعد وقيود العمل الإعلامى وأحد هذه القيود هو وجود جمهور من المستمعين، فالصيغ وسيلة لإشراك الجمهور فى الموضوع عن طريق توضيح ما يقوله المتحدثون واستنتاج المعانى الضمنية. أما القيد الثانى فيأتى من الحاجة إلى احتفاظ المذيع أو مندوب الأخبار بموقف من الحياد الرسمى، فالصيغ البديلة تمثل وسيلة خفية لتقييم ما يقال، أو لزيادة صعوبة أو سهولة الأسئلة بالنسبة للمستجوبين (المتحدثين Interviewees) أو لدفع الحديث فى اتجاه معين بدلاً من اتجاه آخر، ويمكن إضافة قيد ثالث يتعلق بوقت البرنامج أو تحديد الوقت المتاح للمتحدث، بالإضافة إلى قيد السياسة الخاصة بالمحطة الإذاعية أو التليفزيونية.

وثمة فروق مهمة بين الأحاديث المقروءة وكل من الأحاديث الإذاعية والتليفزيونية، وكذلك بين أنواع وأهداف كل حوار، ولعل أهم هذه الفروق من وجهة نظرى أن التدخلات فى الأحاديث المقروءة فى الصحف والمجلات لا تظهر أمام المتلقين أو حتى أمام الباحث الذى يقوم بإجراء تحليل المحادثة، بينما تظهر هذه التدخلات بوضوح فى الحوارات المذاعة بشكل مباشر فى الإذاعة والتليفزيون، مقارنة بمثيلاتها التى تسجل ثم تخضع للمونتاج ثم تذاع،حيث يمكن إخفاء أو تحسين نوعية وحجم تدخلات المذيع.

ويؤكد هيريتاج Heritage على الجانب المعيارى للأحاديث الإخبارية news interviews أى الشق المشترك فى هذه الأحاديث والمتمثل فى قواعدها الإجرائية المفهومة ضمنيًا. ولكن الأحاديث ليست نوعًا موحدًا، فهناك تنوع كبير فيما بينها من نواحى الشكل والمضمون، كما يمكن ملاحظة هذا التنوع تاريخيًا، فلا شك أن الأحاديث التى كانت تجرى فى عام ١٩٦٠ تختلف عن الأحاديث التى كانت تجرى فى عام ١٩٩٠، كما يظهر هذا التنوع أيضًا فى الإذاعة المعاصرة، حيث يتأثر الحديث بالوسيلة الإعلامية المستخدمة وبنوعية البرنامج وبالأسلوب الخاص للمذيع أو المحاور interviewer. **(Fairclough, 1995)**

وأعتقد أن أعمال هيريتاج Heritage على أهميتها تحتاج إلى قدر من المراجعة النقدية ترتبط بصعوبة التسليم بصحة الفرضية التى وجهت بحوثه، حيث لا يمكن التسليم بأن تدخلات المذيع أو مندوب الأخبار هى مجرد أدوات تقنية تفرضها قواعد العمل، إذ إن المذيع لديه مواقف وتحيزات أيديولوجية وأحيانًا مواقف شخصية من الشخص أو الأشخاص الذين يجرى معهم الحوار، كما أن استخلاصات أو تدخلات المذيع تعتبر عملاً أيديولوجيًا من الطراز الأول سواء اتفق أو اختلف مضمون هذا التدخل مع سياسة الوسيلة الإعلامية التى يعمل فيها المذيع.

ويمكن القول فى ضوء متابعة البرامج الحوارية ـ خاصة فى الفضائيات العربية ـ

أن بعض المذيعين تحولوا إلى سلطة ذات استقلال نسبى عن سياسة الفضائيات التى يعملون فيها، وأن هذه السلطة الصغيرة المستقلة نسبيًا تمارس أشكالاً من القهر على شخصية الضيف المتحاور، مع ملاحظة أن مظاهر ودرجات هذا القهر تختلف بحسب أهمية شخصية الضيف.

واللافت للانتباه أن بعض المذيعين العرب فى الإذاعات والمحطات التليفزيونية العربية يستخلصون أحكامًا وآراء من إجابات المتحاورين تختلف بدرجة كبيرة، بل وتتناقض أحيانًا مع المواقف الحقيقية لهؤلاء الأشخاص، ولعل إجراء عدد من بحوث تحليل المحادثة يكشف تفصيلاً عن آليات التدخل والتشويه والتحيز التى يمارسها المذيعون فى برامج عربية شهيرة.

فى المقابل ثمة من يركز على نقد سلوك وأداء الضيوف أو الأشخاص المتحاورين فى البرامج الحوارية والإخبارية، حيث يميل بعضهم إلى الإطالة أو المراوغة أو استخدام مفردات تخرج عن آداب الحوار فى الهجوم على الخصوم، فى هذا الإطار يرى (جريتباتش ١٩٨٦) Greatbatch أن إحدى القواعد الإجرائية لإجراء الأحاديث، بطريقة معيارية، هى ضرورة أن يقتصر المتحدث على إجابة الأسئلة، لكن بعض المتحدثين لا يطبقون دائمًا هذه القاعدة. فأحيانًا يجيبون على السؤال بالحديث عن موضوعات خاصة بهم أولاً، ثم يجيبون على السؤال، وأحيانًا لا يجيبون على السؤال أو يقدمون إجابات غامضة.

خلاصة القول أن هناك اختلافات فى معايير وقواعد إجراء الأحاديث نتيجة التطور الزمنى وإمكانيات وخصائص كل وسيلة إعلامية والأسلوب الخاص للشخص الذى يجرى الحوار فضلاً عن طبيعة ونوع الحديث، ويرى فيركلاو أن تحليل المحادثة قد أضاف موردًا جديدًا إلى اللغويات الوصفية من خلال دراسة عمليات توجيه الحوار والتحكم فى الموضوع وصياغة الأفكار، لكنه تجاهل الكثير من الجوانب التى يهتم بها الوصف اللغوى حيث يركز على التفاعل أثناء الحوار، كذلك فإن تحليل المحادثة لم يهتم بربط خصائص اللغة والحوار بعلاقات القوة

والأيديولوجيات والقيم الثقافية داخل المجتمع. (Fairclough، 1995، p. 22).
ورغم هذا النقد إلا أن تحليل المحادثة قد حقق انتشارًا فى السنوات الأخيرة بعد استخدامه على نطاق واسع فى دراسات تحليل المحادثات والحوارات عبر الإنترنت.

حصاد ما سبق توجد اختلافات عديدة حول استراتيجيات تحليل المحادثة، وحول تسجيل الشعور العام أو الإدراك العام فى المحادثة، كما توجد اختلافات حول عملية التفسير وحول ثبات النتائج مع اختلاف التحليل. ثم هناك جدل حول تأثير العوامل الاجتماعية للمشاركين فى الحوار ودوافعهم، كما أن هناك اختلافات بنيوية وموضوعية فى تحليل الحوارات بحسب نوعها وسياقها العام والخاص. فالحوارات التى تجرى فى وسائل الإعلام تختلف عن تلك التى تدور فى فصول الدراسة أو فى العيادات الطبية والمحاكم.. إلخ.

وبمراجعة القضايا المنهجية فى تحليل المحادثة يرى بول تن هاف Paul Ten Have أن تحليل المحادثة هو توتر بين التفسير والتحليل، أى حالة وسط بين التحليل والتفسير، فهو تفسير عندما يقوم الباحث بتفسير المعانى غير المتماثلة فى كلام وأفعال الناس، كما أنه من جانب آخر تحليل عندما يستخدم الباحث جهوده لعزل الوجوه المختلفة للحوار واستخدام آليات وإجراءات معينة فى عملية تحليل القضايا.

وتبدو هذه القضية مثارة عبر تطور بحوث تحليل المحادثة منذ بداياتها حتى الآن، عندما كان التحليل يعتمد على الكلام المكتوب فقط. أما الآن.. ومع الصوت والصورة وإيماءات الجسد أو لغة الجسد فإن العملية أكثر صعوبة، كما تزداد صعوبة مع تحليل المحادثات عبر الإنترنت . (Paul Ten Have, 2005)

المبحث الخامس

تحليل الخطاب الإعلامى فى إطار مدرسة التحليل الثقافى

تأسست مدرسة التحليل الثقافى العام cultural generic analysis فى رحاب مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام فى بريطانيا عام ١٩٦٤، إلا أن أصولها ربما ترجع إلى نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات،ومن أبرز أعلامها: ريتشارد هوجارت Richard Hoggert، وتومبسون P. Thompson، وستيوارت هال Stuart Hall. لكن ربما كانت أعمال رايموند ويليامز Raymond Williams الأكثر أهمية فى تأسيس هذه المدرسة التى ربطت بين الثقافة والإعلام فى إطار اهتمامها بتحليل معنى الثقافة، وتحول الثقافة إلى سلع تنتج وتوزع على نطاق واسع فى ظل المجتمع الرأسمالى. من هنا ظهر مفهوم الثقافة الجماهيرية المادية،وكيف أن وسائل الاتصال الجماهيرى تلعب دورًا بالغ الأهمية فى إنتاج وترويج الثقافة الجماهيرية، وعلاقة ذلك بأسلوب الحياة والأيديولوجية والوعى فى المجتمع. **(Munns and Rajan,1995)**

وفى إطار اهتمامات مدرسة التحليل الثقافى بالإعلام ظهرت كثير من البحوث التى تناولت بالتحليل الخطاب الإعلامى من زاوية تأثيره فى خلق أو تغييب الوعى لدى الجمهور، وكذلك دور الخطاب الإعلامى فى عملية التفاعل الاجتماعى، وقد طور ستيوارت هال مفهوم الضمنية والتصريح والتغيير فى اللغة، وأكد أن المعنى هو نتاج العملية الجدلية بين النص والقارئ فى سياق اجتماعى وتاريخى معين، وخلص إلى أن وسائل الإعلام لا تعكس الواقع وإنما تقوم بإنتاجه عبر المعانى والاختيارات الأيديولوجية التى تنتجها أو تروج لها. **(Hall, 1977, pp. 123 -129)**

واعتمدت بعض الدراسات البريطانية عن الخطاب الإعلامى على المساهمات العلمية للدراسات الثقافية المرتبطة بمركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة

برمنجهام Center for The Contemporary Cultural Studies لاستكشاف الأثر الثقافى والاجتماعى للطرق التى تتطور بها حالياً الأنواع الإعلامية مثل: الحديث interviewالذى يجريه المذيع interviewer أو "الدردشة ". وتتبنى هذه الدراسات ما أسماه رايموند ويليامز Raymond Williams النظرة الثقافية (cultural materialist) للنوع الأدبى / الإعلامى، حيث ترى هذه الدراسات أن كل ابتكار فى النوع الأدبى / الإعلامى هو تعبير عن الوعى، كما أنها فى الوقت ذاته أشكال من الوعى بالتغير. (**Fairclough, 1995**)

ورغم صعوبة الاتفاق على مفهوم جامع مانع للدراسات الثقافية ومنهج التحليل الثقافى إلا أن رايموند ويليامز يقول: " نستطيع أن نضع تعريفًا دقيقًا لها من حيث إنها – أى الدراسات الثقافية ـ تعنى دراسات وسائل الإعلام الجماهيرى وعلم اجتماع الاتصالات والقصص الشعبية أو الموسيقى الشعبية. ويرصد رايموند ويليامز التحولات المتسارعة فى مجالات الإعلام ومؤسسات وأشكال الثقافة الشعبية فى الثمانينيات من القرن الماضى، ومن ثمّ التطور الذى لحق بالدراسات الثقافية، خاصة وأن الجمهور أصبح أكثر ارتباطًا واستهلاكًا لأشكال ومضامين الثقافة الشعبية. ويرى رايموند ويليامز أن النظرية الثقافية يمكن أن تكون مفيدة ومتميزة إذا قدمت نفسها باعتبارها نظرية تشمل كل ممارسات الفنون المتنوعة، أو من الناحية الأخرى كشكل من أشكال النظرية الاجتماعية تقترح نفسها أو تميل لأن تكون بديلاً – برغم أنها يجب أن تكون دائمًا ذات إسهام – لتحليل اجتماعى وتاريخى أكثر عمومية. (ويليامز، ١٩٩٩ ، ص ص٢٢١ ـ ٢٢٨).

وأدى السعى الدؤوب للدراسات الثقافية لملاحقة التحولات المتسارعة فى مجال تكنولوجيا الاتصال والإنتاج الثقافى والفنى إلى ظهور اتجاهات تربط بينها وبين تيارات ما بعد الحداثة، حيث يرى رايموند ويليامز أن زمن الحداثة الواعية فى سبيله إلى الانتهاء، لكننا إذا رجعنا إلى الوراء، إلى العرض الذى قدمه التليفزيون لفترة نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات ـ من القرن العشرين ـ لأمكن لنا أن نتقصى

ذات اللحظة التى أحس فيها بموت الحداثة من حيث هو صدمة مباغتة أو تمزق فى نسيج الخبرة، وبمعنى من المعانى فإن رايموند ويليامز قد نظر إلى التليفزيون كموضوع سياسى يجمع بين الشعبية وتكنولوجيا ثقافية واحدة، وفى رأيه أن الكثير مما ندعوه بعد الحداثى إنما هو ببساطة تكــوين حداثـــى. (تونى بنيكنى، ١٩٩٩، ص ص ٤١ – ٤٢).

وفى المجال الإعلامى يستفيد منهج التحليل الثقافى ـ كما يقول فيركلاو ـ من أبحــاث جوفمــان (Goffman) حول كيــف يخاطــب المذيعــون بالراديــو جماهير المستمعين، كما يستفيد من التوجه فى تحليل المحادثة نحو بناء المعانى والعلاقات الاجتماعية فى الحديث، والتى طورها هاليداى ومونتجومرى. ويميز مونتجومرى Montgomery بين تحليل مادة الحكاية أو القصة المذاعة وبين تحليل عرضها الخطابى، ويتضمن تحليل العرض الخطابى للحكاية أو القصة الجوانب الروائية الناتجة من تحويل رسالة خاصة إلى قصة عامة. كما يغطى هذا التحليل الجوانب الموجهة نحو استقبال الجمهور للقصة، ويتم التفاوض بشأن عوامل التوتر التى تتصف بها الثقافة الإعلامية. على سبيل المثال، يتم التعبير بشكل محسوس عن التوتر بين الطبيعة العامة للناتج الإعلامى والظروف الخاصة لاستقبال الإعلام. **(Scannell, 1996)**

لقد حاول المنهج الثقافى الشامل الربط بين التغيرات التى حدثت فى الأنواع الإعلامية فى الإذاعة والتليفزيون وبين تطور مفهوم المجال العام Public Sphere ، والذى صاغه هابرماس وقصد به ساحة اللقاء والصراع بين الدولة والمجتمع المدنى، والميدان الذى يتوسط بينهما، وهذا المجال العام هو الإطار الذى يظهر فيه الرأى العام نتيجة الجدل والنقاش والصراع بين طبقات المجتمع، وبين المواطنين والدولة. **(Habermas, 1989. pp.1-12; 27-43)**

وإذا كان هابرماس قد ناقش أزمة المجال العام فى ظل السيطرة الرأسمالية، فإن هناك تفاعلات معقدة يلعب الإعلام فيها دورًا بارزًا من أجل تفعيل قدرات المجتمع المدنى فى مواجهة الدولة. فى هذا الإطار سعى ممثلو التحليل الثقافى إلى

مناقشة الأشكال المختلفة لبرامج الإذاعة ولغة الحوار الإذاعى فى بناء المجال العام، مع الاهتمام فى آن واحد بالتفاعل interaction وبطريقة عرض المادة الإعلامية واستقبالها من قبل الجمهور.

وقام طولسون Tolson بدراسة عن تطور أنواع الحديثinterview فى البرامج التسجيلية والبرامج التى تستضيف متحدث talk shows . ويوضح Tolson أن التطور الشامل لطريقة إجراء الحديث يشير إلى تجزئة الجماهير المستمعة وتنمية "الجمهور العام" general public " داخل " المجال العام " public sphere " للإذاعة. كذلك توضح أبحاث طولسون أن تجارب الخلط بين الأشكال الإذاعية (الحديث، المنوعات، الكوميديا) وبين الأنواع المرتبطة بها فى صورة نصوص معقدة ومتداخلة يرتبط باتجاهات أوسع نطاقًا فى مجال التغيير الثقافى.

من جانب آخر تأثرت الدراسات الثقافية بالفكر الماركسى التقليدى وبالمدارس النقدية، خاصة مدرسة فرانكفورت، وكان لنظرية ألتوسير تأثير كبير على مناهج الدراسات الثقافية فى مجال دراسات الاتصال خلال السبعينيات من القرن العشرين، وكان تركيز البحوث الثقافية على تحليل النصوص ـ وبصفة رئيسية النصوص الإعلامية ـ وليس على إنتاج النص واستقباله، حيث اعتبر الباحثون أن المفعول والتأثير الأيديولوجى للنصوص أمر مُسَلّم به، وتم التعامل مع المعانى كما لو كانت محددة وبدون ازدواجية فى النصوص، ويتلخص دور الجمهور المستقبل فى فك شفرة المعانى وإدراكها على نحو سلبى، أو ما يعرف بالتلقى السلبى من قبل الجمهور.

وكانت الدراسات الثقافية المتأثرة بشدة بأفكار ألتوسير ترتكز على فكرة وجود أيديولوجية منفردة هى الرأسمالية التى تسود المجتمع، ولا تترك مجالاً فعليًا لمقاومة فعالة بما يعنى التسليم بفرضية الأيديولوجية الرأسمالية المهيمنة والجمهور المتلقى السلبى للرسائل الإعلامية التى تجسد تلك الأيديولوجية. ولكن منذ نهاية السبعينيات من القرن العشرين خضعت وجهة نظر ألتوسير للنقد من نواحى

مختلفة أبرزها إمكانية مقاومة الرسائل الأيديولوجية المقدمة للشخص التابع، أى حرية وفاعلية الأشخاص فى رفض أو قبول تلك الرسائل أو تفسيرها بشكل خاص يتفق والخصوصية الثقافية والاجتماعية لكل فرد.

وفى هذا الصدد ركزت المجموعة الإعلامية بمركز الدراسات الثقافية المعاصرة فى برمنجهام، بقيادة ستيوارت هال Stuart Hall على تعقد عملية استقبال النصوص الإعلامية، وطبقًا لنظرية هالHall عن التشفير,Encoding وفك التشفير Decoding، فإن المتلقين قادرين على تفسير أو فك شفرة الرسائل بأكواد (شفرات) مختلفة عن الكود المتضمن أصلاً فى نصوص الرسائل المقدمة إليهم عبر وسائل الإعلام. وترتكز نظرية هال Hall – من بين أشياء أخرى – على نظرية جرامشى Gramsci عن الهيمنة Hegemony التى تنسب قدرًا معينًا من القوة أو الفاعلية لجميع المجموعات الاجتماعية فيما يتعلق بإنتاج المعنى والتفاوض بشأن تفسيره .

واليوم، هناك اتفاق عام فى مجالات الدراسات الثقافية وبحوث الاتصال وتحليل الخطاب بأن فرضية الأيديولوجية المهيمنة the dominant ideology thesis تقلل من شأن قدرة الأفراد على مقاومة الأيديولوجيات. فى المقابل تذهب بعض الإسهامات فى مجال الدراسات الثقافية وعلم الاتصال إلى المبالغة فى تقدير قدرة الأفراد على مقاومة الرسائل الإعلامية، ولكن محللى الخطاب يضعون فى اعتبارهم الدور الذى تلعبه الملامح النصية فى وضع حدود على كيفية فهم المتلقين للنص والتفاوض بشأنه.

المبحث السادس

الخطاب الإعلامى ومنهج تحليل الخطاب الاجتماعى الإدراكى

ارتبط هذا المنهج بأعمال الباحث الهولندى فان ديك Van Dijk التى ركزت على تحليل الأيديولوجية والخطاب السياسى و الخطاب الإعلامى، وقد ربط فيها فان ديك ـ بأحكام وبمنهج تكاملى ـ بين الجوانب النحوية والتركيبات اللغوية والسردية والإدراكية فى دراسة النص، بالإضافة إلى استخدام مناهج تحليل الخطاب.

ويرجع هذا الربط التكاملى بين اللغويات الاجتماعية وتحليل الخطاب إلى النشأة الأولى لفان ديك الذى أُعتُبر حتى السبعينيات من القرن العشرين – وقبل تحوله إلى مجال تحليل الخطاب – واحدًا من أبرز الباحثين فى مجال التحليل اللغوى الاجتماعى، بل كان فان ديك من أهم الأصوات المطالبة بأن تقوم النظريات النصية وتحليل الخطاب الإعلامى بالأخذ فى الاعتبار النصوص ذات الصلة وسياق النص محل الدراسة، وأن تشمل أيضًا تلك النظريات والتحليلات بُعدًا كميًا للسماح للمحلل باستنتاج خلاصة ممثلة للواقع. من هنا دعا فان ديك إلى الجمع بين المؤشرات الكمية والكيفية فى تحليل الخطاب، كما توسع فى تحليل عينات كبيرةً نسبيًا من الأخبار والمواد الإعلامية. **(Langer,1998)**

ويوصف منهج فان ديك حاليًا ـ وعلى نطاق واسع ـ بالمنهج التكاملى التطورى فى تحليل الخطاب، حيث قدم نماذج للتحليل النصى على أساس منهج تطويرى approach generative لدراسة النص من النواحى النحوية والتركيبات الروائية، ثم أدخل فان ديك مفهوم " الفعل " فى منهجه لدراسة الجوانب النحوية فى النص. **(Van Dijk,1997)**

كما أصبح ـ من خلال اهتمامه بالبنية الكلية macro-structures ـ مهتمًا بالخطابات المعقدة، وتبع ذلك اتساع مجال أبحاثه فى الثمانينيات من القرن العشرين

لتشمل التكوينات الخطابية discursive، حيث سعى فان ديك إلى تطبيق منهج منظم systematic لتحليل الخطابات الإعلامية، مع الأخذ فى الاعتبار مختلف المستويات والأبعاد التى يجب إخضاعها للتحليل فى المواد الإعلامية المختلفة. على سبيل المثال: (التصميم الكلى للمادة المطبوعة – التعبيرات البيانية – ارتفاع وانخفاض الصوت عند الكلام – المظاهر غير الكلامية – تركيبات الجمل – المفردات المختارة – الآليات البلاغية – الدلالات اللفظية – إلخ).

وفى نهاية الثمانينيات قدم ديك نظرية جديدة تتضمن عدة فروع علمية عن الأخبار فى الصحافة، وتبنّى هذه النظرية لوصف وتحليل عملية إعادة إنتاج الأفكار المنحازة اثنيا فى وسائل الإعلام، وسوء استخدام القوة وإعادة إنتاج عدم المساواة من خلال العمليات الأيديولوجية فى المجتمع وعبر وسائل الإعلام.

وتستند دراسات فان ديك التجريبية empirical على جمع كمية كبيرة من البيانات ومجموعات متكاملة من النصوص التى تتناول موضوعًا معينًا، وتهدف تلك الدراسات إلى توضيح أن الأبنية المجتمعة تؤسس وتأخذ الطابع الشرعى وتصبح مؤكدة أو مهددة بواسطة النصوص والأحاديث الإعلامية.

ويهتم فان ديك بصفة أساسية بالتنظيم الشامل للنصوص بما يضمن التشفير المتماسك منطقيًا لكل جزء من النص خاصة الجمل، فالإطار الأهم لمفهومه للخطاب يرتبط بنظرية شاملة للعمليات الاجتماعية الإدراكية، وأساس هذه النظرية هو افتراض اعتماد إنتاج واستقبال النصوص على النماذج والرسومات الخيالية أو الافتراضية schemata الإدراكية، التى يطلق عليها فان ديك مصطلح "البنيات الفوقية " superstructures.

ويرى فان ديك أن هذه النماذج عبارة عن أيديولوجيات فردية وجماعية، وتمثل النصوص الإعلامية مركز تجمع ووسيلة إظهار لهذه النماذج الافتراضية schemata الإدراكية، وتمثل هذه النماذج الافتراضية الحلقة المفقودة بين النص والمجتمع وبين

الأبنية الخطابية والأبنية الاجتماعيةdiscourse structures and social structures، وتخضع هذه الأبنية دائمًا للتأمل من خلال المساحة البينية بين الإدراك الشخصى والإدراك الاجتماعى، وبالتالى يقترب علم دلالات الألفاظ الخطابية وتطورها من نظريات العقل الاجتماعى والنماذج الافتراضية الإدراكية.

من هنا يبدو من المنطقى أن تكون الأشكال البنيوية والمعنى الكلى لنص إخبارى غير تحكمى، ويتأثر إلى حد كبير بإجراءات روتينية ومهنية للصحفيين فى محيط مؤسسى من ناحية، وبالمعالجات الإدراكية الفعالة للنصوص الإخبارية من جانب كل من الصحفيين والقراء من ناحية أخرى " (**Van Dijk,1997**)، أى أن فان ديك يركز على عمليات إنتاج وفهم الأخبار والنصوص الإعلامية، والعلاقات بين عملية الفهم والممارسات الاجتماعية الأوسع نطاقًا فى المجتمع.

ويميز فان ديك بين مستويين من التنظيم الشامل للنصوص :

المستوى الأول: البنيات الكلية الموضوعية، وتعرف وتصنف على أساس الموضوع وعلى مستوى دلالات الألفاظ، وتؤسس البنيات الكلية الموضوعية Topical macro – structures على قدرتنا على اختصار وتلخيص كل أنواع المعلومات ـ بما فى ذلك المعلومات المعقدة ـ فى مقترحات كلية تعبر عن فكرة theme أو موضوع النص كله.

ويقوم فان ديك بتعريف ثلاث قواعد لعمليات التلخيص هى:

أ- حذف كل المعلومات غير ذات الصلة.

ب ـ التعميم الذى ينشئ مقترحًا كليًا عامًا عن طريق التجريدات من المقترحات الجزئية المختلفة.

ج ـ وأخيرًا البناء، حيث تدمج المقترحات الجزئية لتكوين تسلسل معين، وتستبدل بمقترح كلى جديد.

والمستوى الثانى: البنيات الفوقية التخطيطية schematic superstructures، والتى تعتبر معايير شكلية، وتقوم هذه المعايير بتنظيم المعنى الشامل للنصوص بواسطة علاقات وظيفية بين المقترحات الجزئية والكلية للنص. وتميل هذه العلاقات إلى اتباع قواعد مقررة فى الأنواع المختلفة من النصوص وتتضمن الفئات والقواعد الوظيفية.

واعتمادًا على مفهوم البنيات الكلية والجزئية ركز فان ديك فى أبحاثه التجريبية على تحليل الموضوعات والتماسك المنطقى والتركيبات الفكرية، وأدوار الفاعل roles actor ودور وخلفية منتج النص والملامح الأسلوبية للنصوص، بالإضافة إلى التركيبات الروائية والجدلية. وبناءً على دراسات تجريبية يرى فان ديك أن المقالات الإخبارية تبنى وفقًا لمخطط إخبارى معين يقوم بتحديد إنتاج واستقبال الأنباء، وفى هذا المخطط تصبح كل فئة جزءًا من تسلسل هرمى عام، وتلعب كل فئة دورًا روائيًا أو جدليًا ـ أو الاثنين معًا – فى بناء المقال وتحقيق أهدافه.

ويعتقد دلينجر Delinger أن دراسة فان ديك للتمييز العنصرى فى الصحافة تقدم منهجًا مفصلاً لتحليل الخطاب فى مجال الدراسات الإعلامية، خاصة وأن فان ديك يركز على محتوى النص من وجهة نظر متعددة الفروع العلمية. فعند استخدام تحليل الخطاب مع منهج تكاملى ـ متعدد الفروع العلمية ـ لدراسة اللغة يصبح أداة فى يد الناقد لدراسة الاتصال فى إطار سياقات اجتماعية – ثقافية . **(Delinger, 1995)**

ورغم البدايات الأولى لفان ديك كباحث فى اللغويات الاجتماعية. إلا أن أعماله الأخيرة تمثل انقلابًا على نظريات ومناهج التحليل اللغوى، حيث تركز على تحليل هياكل النصوص فى إطار السياقات الإدراكية أو التاريخية أو الثقافية أو السياسية. إن منهج فان ديك لا يقتصر كما هو الحال فى اللغويات على دراسة الهياكل والمعانى السطحية المنعزلة أو المجردة من سياقها الإدراكى أو المجتمعى، ولكن على العكس فإنه عند البدء بإجراء التحليل الهيكلى يكون من الممكن ـ وفقًا لمنهجية

فان ديك ـ الاستمرار فى التحليل عن طريق إنشاء علاقات مع سياق النص " فنحن نهتم بالعمليات الفعلية لفك الرموز والتفسير والتخزين والتصوير فى الذاكرة، كما نهتم بدور المعارف السابقة ومعتقدات القراء فى عملية الفهم المشار إليها " (Delinger, 1995)، الأمر الذى أكد على أهمية الجوانب الإدراكية، وجعل كثيرًا من الباحثين يعتبرون أن الجوانب الإدراكية واللغوية هى أهم ما يميز منهج فان ديك فى تحليل الخطاب.

وتلعب الأيديولوجية أيضًا دورًا جوهريًا فى المنهجية التحليلية لفان ديك إذ يعتقد أن الأيديولوجيات أطر تفسيرية تقوم بتنظيم مجموعات من المواقف بشأن عناصر أخرى من عناصر المجتمع الحديث. فالأيديولوجيات تمثل بالتالى الأساس الإدراكى لمواقف المجموعات المختلفة داخل المجتمعات، كما تمثل وسيلة لتعزيز أهدافها ومصالحها الذاتية.

ويقدم فان ديك مخططًا من العلاقات المتشابكة بين كل من الأيديولوجية والمجتمع والإدراك والخطاب، ففى داخل الهياكل الاجتماعية يحدث التفاعل الاجتماعى، ويُقدَم هذا التفاعل الاجتماعى فى شكل النص / الخطاب الذى يتم إدراكه وفقًا لنظام الإدراك/ الذاكرة. ويتكون هذا النظام/ الذاكرة system/memory من ذاكرة قصيرة الأجل، حيث تتم عملية استراتيجية تتمثل فى فك الرموز والتفسير. بينما تعمل الذاكرة طويلة الأجل على حفظ المعرفة الاجتماعية – الثقافية التى تتضمن معرفة اللغة والخطاب والاتصال والأشخاص والمجموعات والأحداث الموجودة فى صورة نصوص مكتوبة scripts. كما تمكث المواقف الاجتماعية فى الذاكرة طويلة الأجل، وتقدم مزيدًا من الإرشادات لفك رموز النصوص. ويمكن القول أن هذه المواقف الاجتماعية تشمل مجموعة متنوعة من الأيديولوجيات التى تمتزج معًا لإنشاء الأيديولوجية الشخصية الذاتية للفرد، والتى تتفق مع هوية الفرد: وأهدافه ووضعه الاجتماعى وقيمه وموارده.

ويقول فان ديك إن هذه العملية التى تتمثل فى وضع إطار حول المعتقدات

والآراء التى تخدم مصالح مجموعة معينة ليست عملية نهائية. فمن الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية قد يرغم بعض الأفراد بالقوة أو بالإقناع، على التصرف ضد ما يحقق أفضل مصلحة لهم ، وذلك على عكس ما يذهب إليه كثير من الماركسيين وبعض ممثلى النموذج النقدى الذين يفسرون دور الإعلام فى المجتمعات الحديثة وفقًا لمذهب الحتمية الذى يقول بأن أفعال الإنسان والتغيرات الاجتماعية هى ثمرة عوامل لا سلطة للإنسان عليها، كذلك يرى فان ديك أن الأيديولوجيات هى أساسًا أشكال زائفة من الوعى، كما هو الحال بالنسبة لكثير من النظريات التقليدية عن الأيديولوجية .

رغم ذلك، فإن إمكانية وجود اختلاف بين أيديولوجية المجموعة وبين مصالحها يعنى ضمنيًا أنه يمكن أيضًا إعادة تشكيل علاقات القوة داخل المجتمع وإضفاء الشرعية عليها على المستوى الأيديولوجى. وبعبارة أخرى، فمن أجل التحكم فى الآخرين هناك طريقة فى منتهى الفعالية تتمثل فى محاولة التحكم فى مواقفهم الجماعية من خلال الإقناع وتزييف الوعى وبدون اللجوء إلى القوة أو القهر المادى، وفى ظل تلك الظروف سوف تتصرف جماهير القراء أو المستمعين بمحض إرادتها الحرة وفقًا لمصالح أصحاب القوة.

خلاصة القول أن نظرية فان ديك مثل كتابات (ووداك Wodak) و (كريس Kress) تعنى ضمنيًا أن ممارسة القوة فى المجتمعات الحديثة الديمقراطية لم تعد تعتمد على الإكراه بالدرجة الأولى بل على الإقناع، أى أصبحت عملية أيديولوجية تقوم على ما يطلق عليه أحيانًا القوة الناعمة أو الإكراه الطوعى، وهى الفكرة التى كان المفكر الإيطالى أنطونيو غرامشى هو أول من تحدث عنها.

أما العنصر الأساسى الآخر فى نظرية فان ديك فيرتبط باستخدامه منهج بينثقافى (أى مرتبط بثقافتين أو أكثر) لتحليل الإعلام يعتمد على التحليل المنتظم للضمنية . حيث إن الصحفيين ومستخدمى وسائل الإعلام الآخرين يملكون نماذج ذهنية بشأن العالم ، وبالتالى يكون النص فى الواقع مثل جبل ثلجى من المعلومات وقمة

هذا الجبل هى فقط التى يعبر عنها فعليًا بالكلمات والجمل. أما الباقى فيفترض أنه مكوّن من الصور المكتوبة المعرفية والنماذج المعرفية لمستخدمى وسائل الإعلام، وبالتالى يترك عادة دون الإفصاح عنه . وبناءً على ذلك، يخلص فان ديك إلى أن تحليل المعنى الضمنى مفيد جدًا فى دراسة الأيديولوجيات التى تشكل أساس النص، أو بكلمات أخرى، يتضح من منهج فان ديك أن هناك رسائل عديدة تبث من خلال نص وهيكل نشرة الأخبار التليفزيونية، لكن ما نراه على السطح ما هو إلا " قمة جبل الثلج ".

ومن ناحية أخرى فإن اتباع مناسك معينة وإضفاء شكل معين على الأنماط الإذاعية يعطى بعدًا آخر للدراسات الإعلامية، حيث يحمل هذا البعد الآخر فى طياته رسائل مفهومة ضمنيًا، لكن هذا البعد الآخر لم يخضع للملاحظة والدراسة إلا مؤخرًا، وذلك بسبب انتشار الإذاعات الأجنبية من خلال تكنولوجيا الأقمار الصناعية والبث المباشر. ففى معظم الثقافات الحديثة تأخذ نشرة الأخبار التليفزيونية المألوفة شكلاً محددًا ربما ظل مستخدمًا ـ مع تعديلات طفيفة فقط ـ لعدة عقود زمنية.

وبعد التعود على نمط معين من إذاعة الأخبار عبر سنوات كثيرة يميل المذيعون والمستمعون إلى إغفال الرسائل التى تصاحب محتوى الأنباء، بعبارة أخرى يميل ترميز الأنباء التليفزيونية وفك رموزها من جانب الجمهور إلى اتخاذ شكل معين، وذلك لدرجة تجعل كثيرًا من الرسائل المتضمنة فى الأسلوب الإذاعى تمر دون إثارة الاهتمام بالنسبة لثقافة ما، بينما يتم تفسير تلك الرسائل بشكل مختلف وإساءة تفسيرها أو عدم فك رموزها من جانب ثقافة أخرى.

فكلٌّ من المذيعين والجماهير يتعلمون أن يتعرفوا على الأسلوب المألوف الذى يطبع نشرتهم الإخبارية التليفزيونية بنمط معين، ولكن اليوم ومن خلال توافر الإذاعات الدولية عبر الأقمار الصناعية ونظام الكابل ، أصبح من الممكن الاطلاع ـ فى صحبة جمهور أجنبى من المشاهدين – على كثير من تلك الصيغ المتبعة كنوع

من الطقوس المعتادة والمفهومة ضمنيًا، وتحويل تلك الصيغ إلى ظواهر مرئية. أى أن الجمهور المحلى أصبح بمقدوره الاستماع إلى أو مشاهدة صيغ وأنماط جديدة من النشرات الإخبارية، مما يفتح مجالات جديدة لإدراك وفهم المضامين الظاهرة والكامنة فى الرسائل الإعلامية.

خلاصة القول: تعتبر نظرية فان ديك من النظريات الأكثر تأثيرًا على الأبحاث الحديثة فى مجال تحليل النصوص الإعلامية والخطاب الإعلامى، ولعل أهم إسهامات فان ديك هى إعادة الاعتبار للبحث المنظم والكمى الموسع للنصوص الإعلامية وسياقها الإدراكى والمجتمعى ، إضافة لتطويره نظرية تجمع بين تحليل النصوص وبين الاهتمام المتنامى بدراسات الاستقبال studies reception، وذلك عن طريق تقديم وصف أدق لكيف تصنع القواعد النصية إطارات لإنتاج واستقبال الأخبار.

وثمة بعدٌ أخير ومهم تطرق إليه فان ديك خاص بالجذور التاريخية والفلسفية لتحليل الخطاب، حيث يقول: " يمكن إرجاع تحليل الخطاب تاريخيًا إلى البلاغة الكلاسيكية، ففى الستينيات فقط من القرن العشرين تم إدراك أن البلاغة الكلاسيكية لديها المزيد لتقديمه، فعُرفت البلاغة بالبلاغة الجديدة، وبدأت تلعب دورًا فى تطوير التحليل التركيبى للخطاب. ففى الدراسات الأدبية على سبيل المثال تفهم البلاغة فى أحيان كثيرة بمعنى أوسع باعتبارها العلم الذى يتناول كافة جوانب الكتابة أو المحادثة الإقناعية، وبهذا المعنى تصبح البلاغة الجديدة مطابقة تقريبًا لجزء كبير على الأقل من تحليل الخطاب ". (Van Dijk,1997)

لكن رغم نجاح النظرية الاجتماعية ـ الإدراكية socio-cognative theory فى تحليل الأخبار باعتبارها خطابًا، كانت هناك تعليقات نقدية على هذا المنهج تتعلق فى الغالب بالتطبيق التجريبى له، والتركيز على التمثيل الاجتماعى ودور الأيديولوجية فى بناء وإدراك الخطاب، والسؤال المطروح هو : هل يمكن أن يقبل

أصحاب النظريات الاجتماعية طريقة فان ديك فى التعامل مع البيانات النصية على أنها ذات قيمة تمثيلية للواقع، وأنها قابلة للتعميم عندما يزعم أنه يضع إطارًا نظريًا جديدًا لفهم العلاقة بين الأيديولوجية والنص؟

بالإضافة إلى ذلك يركز منهج فان ديك على البنيات الكلية الموضوعية الموجودة بالخطاب، وبالتالى لا يأخذ هذا المنهج فى الاعتبار نسيج الخطاب، أى ما يمكن أن يكون موضوعا فى الخطاب وما لا يمكن قوله **(Frandsem,1996)**.وذلك بهدف البعد عن أى درجة من درجات التأويل. وبصفة عامة يلاحظ أن هناك عددًا محدودًا من الأبحاث استخدم الإطار النظرى والمنهجى لفان ديك، ومن ثمّ لا يمكن الوثوق فى الإمكانيات التطبيقية لمساهمات فان ديك، لكن حتى لا أظلم فان ديك يجب أن أقرر أن معظم الأطر النظرية والمنهجية فى مجال تحليل الخطاب لم تستخدم على نطاق واسع وعبر ثقافات ومجتمعات مختلفة على المستوى الدولى.

ويرى فيركلاو أن فان ديك قام بتطوير نموذج لتحليل الأخبار المنشورة فى الصحف بصفة خاصة باعتباره خطابًا مكونًا من ثلاثة أبعاد هى: النص وممارسة الخطاب والممارسة الاجتماعية الثقافية، ويعتبر التركيز على ممارسة الخطاب وسيلة لربط التحليل النصى بالتحليل الاجتماعى ـ الثقافى، ويتابع فيركلاو : " إن أبحاث فان ديك مثل الدراسات السميولوجية الاجتماعية أنجزت انتقالاً مهمًا من تحليل النص ـ وهو مجال اهتمام اللغويات النقدية ـ إلى تحليل الخطاب ". **(Fairclough,1995, p. 29)**

فى هذا السياق تلعب الأيديولوجية دورًا جوهريًا فى المنهجية التحليلية لفان ديك. فالأيديولوجيات من وجهة نظره هى أطر تفسيرية تقوم بتنظيم المواقف، وتعتبر أيضًا أساسًا للإدراك، واهتم فان ديك بقضايا التمييز الإثنى فى الصحافة سواءً فى إطار الثقافة الواحدة أو بين ثقافات متعددة، كما ركز على قضايا الإدراك متأثرًا بمفهوم فيسك Fiske عن الإدراك، حيث أشار إلى أن الصحفيين ومستخدمى وسائل الإعلام يملكون نماذج ذهنية بشأن العالم.

والشاهد أن فان ديك ركز على الخطاب الإعلامى المنشور فى الصحف أكثر من بقية وسائل الإعلام، خاصة التليفزيون، كما ركز على التحليل اللغوى وأهمل عملية التناص،أى كيفية بناء النصوص من خلال تكوينات الخطابات والأنواع الأدبية السابقة، كذلك اهتم بممارسات صنع الأخبار واستقبالها باعتبارها عملية مستقرة تسهم فى إعادة إنتاج علاقات الهيمنة وأيديولوجيات التمييز، غير أنه لم يهتم بتنوع وعدم تجانس تلك الممارسات (Fairclough, 1995, p. 30). إلا أن إسهامه المهم تمثل فى تحديده لمفهوم وأبعاد التحليل النقدى للخطاب وعلاقاته بالدراسات اللغوية وبالنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، وإقراره بتعدد مجالاته وتنوعها، ومن ثمّ ضرورة استخدام مناهج وأطر نظرية تكاملية. (Van Dijk,1998)

المبحث السابع

المدرسة الألمانية فى تحليل الخطاب الإعلامي

ظهرت فى إطار الجامعات الألمانية مدرستان نقديتان فى تحليل الخطاب الإعلامى، ربما كان أهم ما يميزهما عن المدارس الفرنسية والبريطانية اهتمامهما باللغة والبلاغة وبالاستراتيجيات الجدلية داخل الخطاب، ونعرض لهاتين المدرستين فيما يلى :

المدرسة الأولى: وتعرف بمدرسة ديوسبرج The Duisberg School وارتبطت بسيجموند ييجر Yager الذى تأثر بأعمال ميشيل فوكو وبمدرسة فرانكفورت وباللغويات النقدية، وقد أسس ييجر منهجه فى التسعينيات من القرن العشرين على نقد كل من البحث اللغوى التقليدى والبحث الاجتماعى، فاللغويون ـ كما يقول ييجر ـ يركزون بحثهم بصفة رئيسية على النواحى الشكلية للغة دون الانتباه إلى مضمون النصوص والممارسة الخطابية والمحيط الاجتماعى والثقافى للنصوص.

كما انتقد ييجر البحوث الاجتماعية الكيفية لافتقارها إلى نظرية أو طريقة بحث محددة لتأويل النصوص، ثم اعتمد على مقولات المدرسة الثقافية التاريخية التى أسسها عالم النفس الاجتماعى فيجوتسكى Vygotsky فى تطوير نظرية تعيد تعريف العلاقة بين الفعل acting والتفكير والاتصال، والعلاقة بين الفرد والمجتمع، وأكد ييجر أن النصوص ليست شيئًا فرديًا فقط، وإنما تمثل دائمًا شيئًا اجتماعيًا. فالنصوص أجزاء من خطابات فوق فردية over-individual، وبالتالى يكون الخطاب عند ييجر مشابهًا إلى حد كبير لتعريف ميشيل فوكو باعتباره تدفقًا ذا جذور تاريخية من النصوص والأحاديث التى تشكل كل منها المعرفة عبر الزمان.

أما أجزاء الخطاب عند ييجر فهى نصوص أو أجزاء من نصوص تتناول موضوعًا معينًا أو فكرة معينة، ويشكل كل عدد من أجزاء النصوص سلسلة خطابية يمكن وضعها على مستوى خطابى واحد أو عدة مستويات خطابية – على

سبيل المثال فى: السياسة، والتعليم، والإعلام – وبالتالى تمثل السلاسل الخطابية Discourse Chains تدفقًا للأجزاء الخطابية عن نفس الموضوع. وتشكل السلاسل الخطابية المتعددة الخطاب البينى Inter-Discourse، الذى يمكن تعريفه بأنه إجمالى كافة الخطابات غير العلمية، وأخيرًا يشكل هذا الخطاب البينى، بالإضافة إلى الخطابات العلمية المتخصصة إجمالى الخطاب الاجتماعى.

ويرى ييجر أن تحليل النص هو أول تحليل للخطاب إذا اعتبرنا أن النصوص هى أجزاء من خطاب تمتد جذوره اجتماعيًا وتاريخيًا، كما يؤكد أن تحليل الخطاب يهدف إلى فك الاشتباك بين نصوص وخطابات معينة لأن النصوص والخطابات المختلفة تتداخل وتخلق توترًا خطابيًا، ولذلك يقترح ييجر التركيز على تحليل العقد الخطابية، أى النصوص المركزية فى سلسلة خطابية، ويمكن فهم العقد الخطابية على أنها النصوص الرئيسية أو المركزية التى تحدّث عنها ميشيل فوكو، لأن هذه النصوص تشير إلى نصوص سابقة زمنيًا فى نفس السلسلة الخطابية أو تتناص مع خطابات أخرى.

ويؤكد ييجر أن إجراءات تحليل الخطاب يجب أن تظل كيفية، كما ينفى وجود وصفة أو إجراءات روتينية يمكن تطبيقها عالميًا عند تحليل الخطاب، لكن يجب أن يصمم تحليل الخطاب لكى يكون متفقًا مع اهتمامات البحث وأهدافه ومضمون الخطاب محل التحليل، فى ضوء ذلك يقترح ييجر أن يشمل تحليل الخطاب كلاً من: تحليل البنية الكلية للخطاب، وتحليل السياق اللفظى وغير اللفظى، والتحليل اللغوى على المستوى الجزئى للنص، وأخيرًا التفسير النهائى والذى يشتمل على: تحليل الرسالة والجمهور المستهدف، والإطار الأيديولوجى والاجتماعى للخطاب، والملامح اللغوية لفهم الخطاب، والآثار المقصودة للخطاب. **(Langer,1998)**

المدرسة الثانية: وتعرف بمدرسة فيينا، وترتبط بأعمال أستاذة اللغويات التطبيقية روث ووداك Ruth Wodak التى تعتبر أشهر من يمارس تحليل الخطاب على المستوى العالمى فى الدول الناطقة بالألمانية، وتقيم ووداك فى فيينا وتكتب

أبحاثها بالألمانية والإنجليزية والفرنسية، ويعتمد منهجها لتحليل الخطاب على الأبحاث اللغوية الاجتماعية وأعمال مدرسة فرانكفورت وميشيل فوكو، بالإضافة إلى الدراسات الثقافية لستيوارت هال، ونظرية رأس المال الرمزى لعالم الاجتماع الفرنسى بيير بورديو.

كما استفادت ووداك من أعمال عالم اللغة الألمانى يوتس ماس Utz Maas، الذى أثرت أعماله فى مجال دراسات الخطاب فى الدول المتحدثة بالألمانية، ويعرف ماس الخطابات بأنها أشكال لغوية ترتبط بالممارسة الاجتماعية ويجب بحثها من نواحى التاريخ وعلم الاجتماع، مع الاهتمام بالبعد البلاغى والتأويلى. واستنادًا إلى ماس فإن تحليل الخطاب يهدف الى تسجيل كافة القواعد التى تشكل خطابًا معينًا، ويتم تعريف الخطاب هنا بأنه مجموع كافة النصوص ذات الصلة اجتماعيًا فى مجال اجتماعى معين، ويتحدد الهدف النهائى لتحليل الخطاب فى إعادة بناء الطرق التاريخية للتفكير.

ويتضمن تحليل الخطاب لدى ماس Mass الآتى :

أولاً : تحديد مضمون وموضوع النص.

ثانيًا : وصف كيفية عرض المضمون، أى التحليل اللغوى وتحليل الأسلوب.

ثالثًا : تحليل معانى الرسالة فى علاقتها بالسياق الاجتماعى والتاريخى.

رابعًا : الربط بين الخطوات السابقة من أجل التوصل إلى استخلاصات عامة.

أما ووداك فتميز بين ثلاثة مستويات من التحليل هى: المضمون والاستراتيجيات الجدلية والملامح اللغوية، كما تؤكد على أهمية البحث فى تاريخ الخطابات من خلال منهج متعدد المستويات، ولذلك تجمع أعمال مدرسة فيينا بين التحليل التاريخى والكمى على مستوى الخطاب والممارسة الاجتماعية، وبين التحليل الكيفى على المستوى الجزئى النصى. **(Langer, 1998 - wodak, 2001)**

ويقدم لنجر Langer ـ الذى يعتبر أحد المنتمين لمدرسة فيينا ـ عرضًا شاملاً لمساهمات مدرسة فيينا، حيث يعتقد أن العنصر الرئيسى فى فكر مدرسة فيينا هو ما تسميه هذه المدرسة " منهج الخطاب التاريخى " The Discourse Historical Method، والذى يقوم وبشكل منتظم على استخدام كل المعلومات والبيانات المتاحة فى تحليل وتفسير الخطاب، علمًا بأن هذه المعلومات والبيانات تمثل الخلفية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتاريخية لممارسة الخطاب، أى أن الخطاب لا يمكن تحليله بمعزل عن المجتمع والتاريخ. من هنا عارضت مدرسة فيينا اللغويات التقليدية التى تركز على اللغة بمعزل عن المجتمع والتاريخ.

ومع ذلك تهتم مدرسة فيينا بالأشكال اللغوية للخطابات الاجتماعية على المستوى الجزئى Micro- Level، مع الاهتمام بتحليل تاريخ أصول نشأة الخطاب على المستوى الكلى Macro - Level، ومثل هذا التعريف لقدرات وأهداف تحليل الخطاب، أدى إلى توافق روث ووداك مع نورمان فيركلاو على تعريف للخطاب باعتباره: " استخدام للغة فى الحديث (التخاطب) والكتابة – كشكل من أشكال الممارسة الاجتماعية "، مع الإقرار بكون العلاقة بين الخطاب وسياقه الموقفى والمؤسسى والاجتماعى علاقة جدلية.

هكذا تفهم مدرسة فيينا تحليل الخطاب باعتباره عملية بحث فى آثار الحضارة، حيث يجب البحث فى نشأة الخطابات من خلال تحليل متعدد المستويات يستخدم منهج تتعدد فيه طرق البحث، ولهذا الغرض تقوم مدرسة فيينا عادة بالجمع بين التحليل التاريخى والكمى على مستوى الخطاب والممارسة الاجتماعية، وبين التحليل الكيفى على المستوى الجزئى النصى.

وتقدم مدرسة فيينا مجموعة من الإرشادات المنهجية الخاصة بتحليل الخطاب وهذه الإرشادات هى :

١ـ ضرورة فهم سياق النص والنصوص ذات الصلة.

٢ـ المقارنة بين التقارير والبيانات والوقائع الحية.

٣ـ التفرقة بين أبعاد التحليل (الأبعاد الناتجة من الخطاب و الأبعاد المحيطة بالخطاب).

٤ـ تحديد طريقة البحث والتصنيف، وذلك في عدة فئات هي :

أـ تعريف شكل ومضمون الخطابات.

ب ـ تحليل الاستراتيجيات والتقنيات الجدلية.

جـ ـ توضيح الارتباط بين النتائج والملامح اللغوية على المستوى الجزئي. **(Wodak,1999, pp.185-193)**

ووفقًا للأعمال التجريبية لمدرسة فيينا لا تظهر التمايزات أو الفروق فقط في صور نمطية متكررة Stereotypes صريحة على مستوى تركيب الجملة، وإنما تظهر أيضًا ضمنيًا على المستوى النصي، لذلك يعتبر تحليل الاستراتيجيات الجدلية Argumentative Strategies على نفس الدرجة من الأهمية على الأقل مقارنة بتحليل الملامح اللغوية على المستوى الجزئي. بالإضافة إلى ذلك فإن بعض الملامح المميزة – الفروق ـ على مستوى الاستراتيجيات والتقنيات الجدلية تؤدي إلى نوع من التصنيف أو التميز الثقافي – الاجتماعي للخطاب.

وعلى عكس فوكو Foucault تقول روث ووداك :إن التحليل النقدي للخطاب يهدف إلى الكشف عن عمليات استخدام اللغة لآليات القوة والسيطرة السياسية والتلاعب بالسلطة، وأيضًا استخدام الاستراتيجيات التمييزية (على أساس النوع أو العرق) للقهر والاستعباد. فالتحليل النقدي للخطاب مضطر للمشاركة في الحركات التحررية، ويأخذ جانب الذين يضطرون للمعاناة تحت وطأة الظلم السياسي أو الاجتماعي ".**(wodak, 2001)**.

ويرى لينجر أن هذا التعريف أقرب إلى الإعلان السياسي منه إلى التعريف العلمي، لكنه تحقق في الدراسات المعاصرة لمدرسة فيينا، والتي تتناول الخطاب الإعلامي العنصري والتيار المعادي للسامية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية في

النمسا. وقد كشفت نتائج هذه الدراسات أن الخطابات العنصرية والمتحيزة مسبقًا لها كثير من الملامح الشكلية المشتركة رغم اختلاف مضمون تلك الخطابات، وذلك طبقًا للمجموعات المعنية وطبقًا للمحيط الذى تظهر فيه بعض الإنجازات اللغوية، وبالتالى تصبح طريقة الخطاب – التاريخية أداة لبيان التصريحات والتلميحات ذات التمييز المسبق الصريح أو الضمنى فى الخطابات التى تعمل ضد جماعات معينة. **(Langer, 1995)**

واستنتجت ووداك Wodak وآخرون أنه يمكن استخدام منهج الخطاب – التاريخى فى الدراسات المشابهة، لأن الهويات الوطنية تنتج ويعاد إنتاجها فى الخطابات على أساس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف، وأيضًا لأن الهويات والصور الشخصية والصور الذاتية Portrays ما هى إلا إنشاءات خطابية، تعتمد على النواحى السياقية والاجتماعية والسياسية.

وبالرغم من اهتمام أعمال روث ووداك ومدرسة فيينا بالبعد التاريخى للخطاب وبالاستراتيجيات الجدلية والملامح اللغوية، إلا أن الطابع العام لتلك المدرسة يقترب من حقل اللغويات أكثر من اقترابه لحقل تحليل الخطاب الإعلامى،حيث تمنح ووداك الأولوية للتحليل اللغوى مع الاعتراف بأهمية النواحى التاريخية والاجتماعية، لكن حتى الجانب التاريخى للخطاب يصعب من الناحية المنهجية تحديده والتعامل معه. فالخطاب ـ أى خطاب ـ له جذور تاريخية قديمة وحديثة، ومن ثمّ تظهر إشكالية تحديد الحقبة التاريخية التى يجب على الباحث ربطها بالسياق المعاصر للخطاب.

والملاحظ أن غلبة الموقف السياسى فى بعض أبحاث مدرسة فيينا قد عرضتها لكثير من النقد، لكن ثمة جوانب نقدية أخرى تتعلق بالمنهج المستخدم واستراتيجيات التحليل، حيث اتهمت بالغموض المنهجى وعدم وضوح الإجراءات الخاصة بجمع البيانات، وصعوبة تطبيق الإرشادات المنهجية التى تقترحها هذه المدرسة على بعض أنواع النصوص والخطابات.

المبحث الثامن

التحليل النقدى للخطاب الإعلامي

لم يقتصر التوجه النقدى فى تحليل الخطاب على مساهمات المدرسة الألمانية أو غيرها من الاتجاهات الراديكالية ضمن مدارس التحليل اللغوى الاجتماعى، بل ظهر تيار عريض يدعى استخدام المنهج النقدى فى تحليل الخطاب باعتباره مجمل الممارسات الاجتماعية والثقافية على المستوى المحلى والدولى، وبطبيعة الحال فإن الخطاب الإعلامى يحتل مكانة مهمة ضمن هذه الممارسات الخطابية.

والمفارقة أن ممثلى هذا التيار العريض ينتمون إلى مدارس وتيارات فكرية مختلفة، لذلك اختلفت مفاهيمهم وممارساتهم للتحليل النقدى للخطاب، وبدت مقولة التحليل النقدى للخطاب وكأنها نقطة الاتفاق الوحيدة بينهم، أو المظلة التى تجمعهم رغم ما بينهم من اختلافات فكرية ومعرفية عميقة.

والملاحظ أن ممثلى التيار النقدى فى تحليل الخطاب تأثروا بدرجات مختلفة بأعمال: غرامشى، وألتوسير، وميشيل فوكو.. فضلاً عن مساهمات مدرسة فرانكفورت، مما يعنى تأثرهم بمفكرين ماركسيين وما بعد حداثيين. من هنا يصعب تصنيف أعمال ممثلى التحليل النقدى للخطاب أو تحديد ملامحها الفكرية،أو حتى ردها إلى أصل فكرى واحد، فهى ممارسات عابرة للأفكار إذا جاز القول. فى هذا السياق ربما كان تناول أعمال نورمان فيركلاو نموذجًا جيدًا لتوضيح ملامح وأبعاد التيار النقدى فى تحليل الخطاب الإعلامى،لاسيما وأن أعمال هذا المفكر البريطانى البارز قد أثرت ـ وما تزال ـ فى عشرات الباحثين، كما أن أعماله أولت تحليل الخطاب الإعلامى أهمية كبيرة.

وقد عرف فيركلاو كعالم لغة إلا أنه انتقل من حقل الدراسات اللغوية إلى مجال تحليل الخطاب، حيث عمل على تطوير نموذج للتحليل النقدى لكافة أشكال الخطاب بما فيها الخطاب الإعلامى، ثم قام مؤخرًا بتوسيع مجال عمل نموذجه

التحليلى بحيث يشمل كافة مجالات العلوم الاجتماعية. فالتحليل النقدى للخطاب هو تحليل للعلاقات الجدلية بين الخطاب ـ والذى لا يشمل اللغة فقط بل والسميولوجيا والصور المرئية ـ وكل عناصر الممارسة الاجتماعية، ومع ذلك يؤكد فيركلاو أن التحليل النقدى للخطاب يهدف إلى توضيح كيف أن التغييرات فى استخدام اللغة تعكس التغييرات الاجتماعية – الاقتصادية والتى ترتبط بعلاقات القوة والهيمنة فى المجتمع، لذلك يدعو فيركلاو علماء الاجتماع إلى تجديد أفكارهم ومناهجهم وأدواتهم البحثية لدراسة الخطاب. **(Fairclough,2002)**

وبغض النظر عن نتائج تلك الدعوة، أكتفى فى هذا المبحث بعرض ومناقشة أعمال فيركلاو المرتبطة بتحليل الخطاب الإعلامى، حيث يمكن القول بأن فيركلاو تأثر بشكل واضح باللغويات النقدية وبأعمال ميشيل فوكو وأعمال غرامشى عن الهيمنة الأيديولوجية، إضافة إلى تأثره الواضح بعالم الاجتماع الفرنسى بيير بورديو، ويتفق فيركلاو مع علماء اللغة جزئيًا فى تعريفه للخطاب، ثم يؤكد اختلافه معهم، فالخطاب بالنسبة له هو اللغة المستخدمة لتمثيل ممارسة اجتماعية من وجهة نظر معينة، ويرى فيركلاو أن الخطابات تشكل وتعيد إنتاج الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية وتمثل نظم المعرفة والاعتقاد لمستخدمى تلك اللغة، ويعتبر كل خطاب جزءًا من نظام خطابى داخل مؤسسة معينة أو مجال معين من مجالات المجتمع. ويضع التحليل النقدى للخطاب تصورًا للممارسات الخطابية لمجتمع معين ـ أى الطرق المعتادة لاستخدام اللغة فى هذا المجتمع ـ باعتبارها شبكات معينة، أطلق عليها فيركلاو أنظمة الخطاب Discourse Orders، ويتكون نظام الخطاب لمؤسسة اجتماعية أو مجال اجتماعى معين من كافة الأنماط والممارسات الخطابية المستخدمة فى تلك المؤسسة أو ذلك المجال، كذلك تعتبر نظم الخطاب مجالاً وبؤرة للصراع الاجتماعى وأحد مجالات الهيمنة الثقافية.

ويقرر فيركلاو ـ نقلاً عن بورديو ـ أن تسمية التحليل بالتحليل " النقدى " يعد اعترافًا منا بأن ممارستنا الاجتماعية بصفة عامة، واستخدامنا للغة بصفة خاصة،

يرتبطان بأسباب وآثار قد تغيب عن درايتنا تمامًا فى الظروف العادية، بعبارة أخرى فإن الارتباطات بين استخدام اللغة وممارسة القوة كثيرًا ما تكون غير واضحة للناس. ولكن عندما نفحص تلك الارتباطات عن قرب تبدو أهمية تحليل العلاقة بين اللغة وعلاقات القوى. وعلى سبيل المثال، فإن طرق إجراء استشارة تقليدية بين طبيب ومريض أو حديث تقليدى بين مراسل صحفى وأحد السياسيين تفترض ضمنًا مجموعة كاملة من الافتراضات المهمة أيديولوجيًا عن الحقوق والواجبات والعلاقات والهويات التى تربط الطرفين، مثل الافتراض بأن الطبيب هو المصدر الوحيد للمعرفة المشروعة طبيًا بشأن المرض المعنى، ومثل الافتراض أنه من المشروع أن يتحدى المراسل الصحفى رجل السياسة بافتراض أنه ممثل عن الجمهور.

لكن هذه الممارسات والأدوار والافتراضات البديهية التى يقوم عليها شكل ومضمون علاقات القوى السائدة بين مجموعات من الناس غير واضحة بالنسبة للمشاركين فيها، الأمر الذى يساعد على استمرار علاقات القوى السائدة. ومثل كثير من العلماء اللغويين يستخدم فيركلاو كلمة " خطاب" للإشارة إلى استخدام اللغة حديثًا وكتابة، ولكن مع توسيع هذا المفهوم كى يتضمن أنواعًا أخرى من النشاط العلاماتى semiotic activity (بمعنى النشاط الذى ينتج معانى) مثل الصور المرئية: (الصور الفوتوغرافية، الأفلام، الفيديو، الرسوم البيانية)، والاتصال غير الشفوى: (حركات الرأس أو الأيدى،... إلخ).

ويؤكد فيركلاو أن استخدام كلمة " خطاب" فى اللغة تعنى الرغبة فى البحث فى هذا الموضوع، مع الاستعانة بالرؤى العميقة التى أنتجتها النظرية الاجتماعية، وذلك باعتبار أن الخطاب هو أحد أشكال الممارسة الاجتماعية.

ويقول فيركلاو إن النظر إلى استخدام اللغة كممارسة اجتماعية يعنى ضمنيًا الآتى:

أولاً : أن اللغة طريقة للسلوك - كما اعترفت بذلك الفلسفة اللغوية - ودراسة العلاقات بين الرموز وتأويلها ومستخدميها واستخدامها .

ثانيًا : أن اللغة طريقة للسلوك ذات موقع اجتماعى وتاريخى، ولها علاقة جدلية مع النواحى الاجتماعية الأخرى. ويقصد بالعلاقة الجدلية أن اللغة تتشكل اجتماعيًا، كما أنها تؤثر فى تشكيل المجتمع. ويستكشف التحليل النقدى للخطاب علاقة الشد بين هذين الجانبين من استخدام اللغة (تشكيل اللغة اجتماعيًا، وتشكيل المجتمع لغويًا) بدلاً من تغليب جانب على الآخر.

كما أن استخدام اللغة – فى أى نص – يؤدى دائمًا وفى آنٍ واحدٍ إلى تكوين :

(١) هويات اجتماعية.

(٢) علاقات اجتماعية.

(٣) نظم من المعرفة والاعتقاد (تناظر على التوالى: الهويات Identitiess والعلاقات والإقرارات representations)، فأى نص يقدم مساهمته الصغيرة فى تشكيل ملامح المجتمع وثقافته .

وفى حالات معينة قد يبدو أحد هذه الجوانب الثلاثة أهم من الجانبين الآخرين ولكن منطقيًا وعمليًا يمكن أن نفترض وجود تأثير على هذه الجوانب الثلاثة، بالإضافة إلى ذلك، يكون استخدام اللغة بالطرق التقليدية عاملاً تشكيليًا يساعد على الاحتفاظ وإعادة إنتاج الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية ونظم المعرفة والاعتقادات السائدة، وفى الوقت ذاته يكون استخدام اللغة من خلال الطرق الإبداعية عاملاً تشكيليًا يساعد على تغيير هذه الجوانب الثلاثة. ولكن هل يتغلب التشكيل التقليدى أم التشكيل الإبداعى فى هذه العملية؟ •• يجيب فيركلاو : " إن الأمر يتوقف على الظروف الاجتماعية وعلى كيفية أداء اللغة لدورها فى ظل تلك الظروف، إن العلاقة بين أى حالة معينة من استخدام اللغة – أى نص معين – وبين أنماط الخطاب المتاحة قد تكون علاقة معقدة وعلاقة إبداعية".

وكما سبقت الإشارة فإن التحليل النقدى للخطاب يضع تصورًا للممارسات الخطابية لمجتمع معين – أى الطرق المعتادة لاستخدام اللغة فى هذا المجتمع – باعتبارها شبكات معينة networks أطلق عليها اسم " أنظمة الخطاب " orders of discourse. فنظام الخطاب لمؤسسة اجتماعية أو مجال اجتماعى معين يتكون من كافة الأنماط الخطابية المستخدمة بتلك المؤسسة أو ذلك المجال. والفكرة الأساسية فى مفهوم " نظام الخطاب " هى إلقاء الضوء على العلاقات القائمة بين الأنماط المختلفة فى تلك المجموعة الواردة بنظام معين. فبالنسبة للمدرسة مثلا، هناك الأنماط الخطابية المستخدمة داخل الفصول وفى الملاعب.

وقد تكون هناك حدود جامدة بين الأنماط الخطابية المختلفة، كما يمكن فى بعض الأحيان المزج بينها بسهولة فى نصوص معينة. وينطبق نفس الوضع على العلاقات فيما بين نظم الخطاب بالمدرسة ونظام الخطاب بالمنزل، وبالتالى يمكن دراسة : هل تتداخل أنظمة الخطاب المختلفة عامة وتمتزج فى استخدام اللغة أم هناك فواصل جامدة بينها؟

إن التغيرات الاجتماعية والثقافية تنعكس خطابيًا فى أحيان كثيرة، وذلك من خلال إعادة رسم الحدود داخل وفيما بين أنظمة الخطاب، و هذه الحقيقة تنطبق على المجال الإعلامى. كذلك تكون هذه الحدود أحيانًا بؤرة للصراع والنزاع الاجتماعى. ويخلص فيركلاو إلى اعتبار أن "أنظمة الخطاب" orders of discourse تعتبر أحد مجالات الهيمنة الثقافية المحتملة، حيث تتصارع المجموعات المسيطرة للتأكيد والاحتفاظ بتركيبة معينة داخل وفيما بين أنظمة الخطاب المتاحة.

ويميز فيركلاو بين فئتين رئيسيتين من الأنماط الخطابية المكونة لأنظمة الخطاب هما: الأنواع الأدبية والخطابات genres and discourses. فالخطاب هو اللغة المستخدمة لتمثيل ممارسة اجتماعية محددة من وجهة نظر معينة، وتنتمى الخطابات discourses بصفة عامة إلى المعرفة وإلى بناء المعرفة. على سبيل المثال يتم التعبير عن الممارسة الاجتماعية للسياسة بشكل مختلف فى الخطابات السياسية الليبرالية

والاشتراكية والماركسية، كما يتم تمثيل المرض والصحة بشكل مختلف فى الخطابات الطبية التقليدية allopathic ، وفى خطابات المعالجة الطبية البديلة homeopathic.

وعلى العكس من ذلك يقصد بالنوع الأدبى genre أن يكون استخدام اللغة مرتبطًا بجزء من ممارسة اجتماعية معينة ومكونًا لذلك الجزء. وعلى سبيل المثال فإن إجراء أو تقديم إعلان يختلف بحسب نوع الحديث أو نوع الإعلان، لكن تركيبة الحديث أيًا كان نوعه تختلف تمامًا عن تركيبة الإعلان أيًا كان نوعه.

إن تحليل أى نمط معين من الخطابات ـ بما فى ذلك الخطاب الإعلامى ـ يستلزم تناوب التركيز على نقطتين توأمتين ومتكاملتين وأساسيتين هما :

- الأحداث الاتصالية. communicative events
- نظام الخطاب. the order of discourse

حيث يهتم المحلل بنص معين مرتبط بأحداث اتصالية محددة، كالمقالة الافتتاحية فى جريدة معينة أو فيلم تسجيلى تليفزيونى، ويتركز الاهتمام دائمًا فى هذا المجال على الاستمرارية والتغيير ـ أى كيف يبدو هذا النص معياريًا بحيث يعكس أنماط وأشكال formats مألوفة ـ وكيف يبدو هذا النص إبداعى بحيث يستخدم موارد قديمة بطرق جديدة؟

ومن ناحية أخرى، يهتم المحلل بالإطار العام the general، أى التركيبة الكلية لنظام الخطاب وطريقة تطورها فى سياق التغيرات الاجتماعية والثقافية. فالتركيز هنا على مجموعة الأنواع الأدبية والخطابات التى تشكل نظام الخطاب والعلاقات المتنقلة بينها وبين نظام هذا الخطاب وغيره من أنظمة الخطاب المجاورة له اجتماعيًا.

ويشرح فيركلاو المقصود بتحليل الأحداث الاتصالية فيؤكد أن التحليل النقدى للخطاب المتعلق بحدث اتصالى هو تحليل للعلاقات القائمة بين ثلاثة أبعاد أو ملامح لذلك الحدث الذى يطلق عليه المصطلحات التالية : نص text، وخطاب discourse، وممارسة اجتماعية ثقافية. وقد تكون النصوص Texts مكتوبة أو

شفوية، وقد تكون النصوص الشفوية مذاعة فقط عبر الراديو أو مذاعة ومرئية عبر التليفزيون. أما مصطلح " ممارسة الخطاب " فيقصد به فيركلاو عمليات إنتاج النــص واستهلاك النـص. كما يقصد بالممارســة الاجتماعــية الثقافيــة التيارات الاجتماعية والثقافية السائدة، والتى يشكل الحدث الاتصالى جزءًا منها.

النصوص

يعرض فيركلاو لممارسة الخطاب والممارسة الاجتماعية الثقافية، فيشير بداية إلى أن تحليل النصوص يعطى أشكالاً تقليدية من التحليل اللغوى – تحليل المعجمية ودلالات الألفاظ، والنحو على مستوى الجمل وأجزاء الجمل، وصوتيات النص ونظام كتابته. كما يتضمن هذا التحليل التنظيم النصى فوق مستوى الجملة بما فى ذلك كيفية الربط فيما بين جمل النص (تماسك النص)، ويتضمن أيضًا جوانب أخرى مثل: تنظيم إدارة وجهة الحديث عند إجراء الحديث مع الضيوف أو التركيبة الكلية لمقال أو مادة منشورة فى صحيفة.

ويهتم تحليل النصوص أيضًا بمعانيها وأشكالها، ورغم أنه قد يكون مفيدًا من الناحية التحليلية المقارنة بين هذين الجانبين، إلا أنه من الصعب فى الواقع الفصل بينهما. فالمعانى لابد وأن تتحقق فى شكل معين واختلاف المعنى يؤدى إلى اختلاف فى الشكل. ومن ناحية أخرى، من المنطقى أن نفترض أنه عندما تكون الأشكال مختلفة، فمن المتوقع وجود اختلاف ما فى المعنى.

ويوصى فيركلاو بأهمية النظر إلى النص من وجهة نظر متعددة الوظائف، وبناءً على ذلك يصبح لكل نص وحتى لكل جملة رئيسية أو جملة مركبة بالنص ثلاث فئات رئيسية من الوظائف، يتعلق بكل منها نظم الاختيارات الخاصة بها، وهذه الفئات هى :ـ

ـ الوظيفة الفكرية. ideational function

ـ الوظيفة الشخصية (أو البين شخصية). interpersonal function

ـ الوظيفة النصية. textual function

وهذه الطريقة المتعددة الوظائف للنظر إلى النص تنسجم مع النظرة التكوينية للخطاب، حيث تعطى لنا وسيلة للتحرى عن التكوين الآنى لنظم المعرفة والاعتقاد (الوظيفة الفكرية) وللعلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية (الوظيفة الشخصية البينية) فى النصوص، أو بكلمات أخرى تمدنا هذه النظرة متعددة الوظائف للخطاب بطريقة لفحص الإقرارات representation والعلاقات relations والهويات identities.

ويقدم فيركلاو نموذجًا لتحليل جملة فى نص مكتوب، حيث يقول: " يجب أن يركز المحلل على كيفية توضيح الجوانب الثلاثة الآتية:

- الإقرارات والطرق المعنية لإعادة وضع الممارسات الاجتماعية فى سياق معين (الوظيفة الفكرية)، والتى قد تحمل معها أيديولوجيات معينة.
- طرق بناء هويتى الكاتب والقارئ (على سبيل المثال، بالنسبة لما يتم إلقاء الضوء عليه، هل يتم إلقاء الضوء على ملامح ودور الهوية أم على الملامح الفردية وملامح الهوية؟)
- بناء معين للعلاقة بين الكاتب والقارئ. (على سبيل المثال، هل هى علاقة رسمية أم غير رسمية، أو علاقة وثيقة أم بعيدة؟)".

مثل هذا التحليل بالغ الحساسية بالنسبة للأبعاد الغائبة كما هو حساس بالنسبة للأبعاد الحاضرة فى النص – أى بالنسبة للإقرارات أو فئات المشتركين أو طرق بناء هوية المشترك أو العلاقات المشتركة التى لا توجد بالنص. ويجب أن يكون تحليل النصوص تحليلاً متعدد الجوانب العلاماتية أو السميولوجية multisemiotic analysis بحيث يتضمن تحليلاً للصور الفوتوغرافية وتخطيط الصفحات والتنظيم الكلى المرئى لها، أو تحليل المؤثرات التصويرية والصوتية فى حالة النصوص المذاعة والمرئية.

ومن المسائل الرئيسية التى ينبغى دراستها فى إطار هذا التحليل، هى كيفية تفاعل تلك الأشكال والنماذج العلاماتية أو السيمولوجية semiotic modalities مع اللغة لإنتاج المعانى المطلوبة، وكيف تحدد تلك التفاعلات المبادئ والقواعد الجمالية المختلفة بالنسبة لوسائل الإعلام المختلفة.

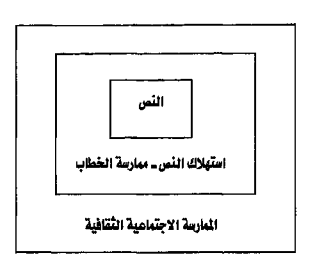
ممارسة الخطاب

لعل أهم إسهامات فيركلاو هو اهتمامه بعمليات إنتاج واستهلاك النص فى آنٍ واحد، أى أن ممارسة الخطاب لا تقتصر على إنتاج النصوص بل ترتبط أيضا باستهلاكها، أى باستقبال الجمهور وتفسيره للنصوص التى تكوّن الخطاب، يقول فيركلاو: إن بُعد ممارسة الخطاب للحدث الاتصالى يتضمن جوانب متنوعة من عمليات إنتاج واستهلاك النص، وبعض هذه الجوانب لها مواصفات مؤسساتية بدرجة أكبر، بينما تكون الجوانب الأخرى عبارة عن عمليات خطابية بالمعنى الأضيق. وبالنسبة للعمليات المؤسساتية institutional فتشمل ـ على سبيل المثال ـ الإجراءات التحريرية المتضمنة فى إنتاج النصوص الإعلامية، بالإضافة إلى اندراج مشاهدة التليفزيون فى عادات الأسرة.

أما العمليات الخطابية discourse processes فترتبط بالتحولات التى تمر بها النصوص خلال إنتاجها واستهلاكها. ويستخدم فيركلاو مصطلحى "العمليات المؤسساتية" و " العمليات الخطابية " لوصف هذين النوعين من العمليات المتضمنة فى إنتاج واستهلاك النص، ثم يضيف بُعدًا ثالثًا يتعلق بالنواحى النفسية والإدراكية بالنسبة لكيفية توصل الأفراد إلى تأويلات للتعبيرات المعينة – أى " العمليات التأويلية " interpretative processes . ويعترف فيركلاو بأن فان ديك Van Dijk يستخدم إطار عمل ذا توجه إدراكى بدرجة أكبر، ولكن فكرته تماثل فكرة إطار العمل الذى يقدمه فيركلاو.

ويوضح الشكل رقم (١) ملخصًا لإطار عمل التحليل النقدى للخطاب المتعلق بحدثٍ اتصالى، حيث يعبرهذا الشكل عن العلاقات بين الأبعاد الثلاثة للأحداث الاتصالية.

الشكل رقم (١)



ويعتقد فيركلاو أن ممارسة الخطاب تلعب دور الوسيط بين البعد النصى والبعد الاجتماعى والثقافى، وبين النص والممارسة الاجتماعية الثقافية، بعبارة أخرى يرتبط البعد الاجتماعى الثقافى بالبعد النصى عن طريق غير مباشر، وذلك من خلال ممارسة الخطاب.

فلا شك أن الخصائص الاجتماعية الثقافية تشكل النصوص، ولكن ذلك يتم عن طريق تشكيل طبيعة ممارسة الخطاب، أى طرق إنتاج واستهلاك النصوص، مما ينعكس على ملامح النصوص، وكما أوضحنا بالنسبة للتمييز بين " العمليات المؤسساتية " و " العمليات الخطابية " تشكل ممارسة الخطاب جسرًا يجمع بين المجتمع والثقافة من ناحية، والخطاب واللغة والنص من ناحية أخرى.

وكان فيركلاو قد أشار إلى " طبيعة ممارسة الخطاب " the nature of discourse practice، أى التناقض بين العمليات الخطابية التقليدية بصفة عامة وبين العمليات الخطابية الإبداعية creative بصفة عامة، والتى تتضمن إما استخدامًا معياريًا للأنماط الخطابية (الأنواع الأدبية والخطابات) أو مزجًا إبداعيًا بين تلك الأنماط على التوالى.

فى ضوء ذلك تكون ممارسة الخطاب الإبداعية معقدة نسبيًا، من حيث عدد الأنواع الأدبية والخطابات discourses المزوجة معًا وطريقة مزجها. ولكن ممارسة الخطاب الإبداعية قد تتحول أيضًا إلى ممارسة تقليدية، وعلى سبيل المثال نجد حاليًا فى الأفلام التسجيلية طرقًا معروفة للتأليف بين الأنواع المستخدمة فى تقديم المعلومات والإقناع والترفيه بصورة عامة. من هنا ربما تتحقق ممارسة الخطاب التقليدية فى النص عندما يكون هذا النص متجانسًا فى أشكاله ومعانيه، بينما تتحقق ممارسة الخطاب الإبداعية فى النص عندما يكون هذا النص متجانسًا نسبيًا فى أشكاله ومعانيه، أى أن معانى وأشكال الخطاب الإبداعى تكون أقل تجانسًا من الخطاب التقليدى.

ويتوقع فيركلاو أن يجد ممارسة خطابية معقدة وإبداعية عندما تكون الممارسة الاجتماعية الثقافية مرنة ومتغيرة وغير مستقرة، كما توقع أن يجد ممارسة خطابية تقليدية عندما تكون الممارسة الاجتماعية الثقافية مستقرة وثابتة نسبيًا. أى أن فيركلاو يرصد وجود علاقة جدلية بين نوعية الممارسة الخطابية وبين طبيعة الممارسة الاجتماعية الثقافية. من هنا يمكن القول أن النصوص الإعلامية تعتبر مقاييس حساسة للتغيير الثقافى، فهى تعكس - فى عدم تجانسها وما تحمله من متناقضات - طبيعة التغيير التى تتسم فى كثير من الأحيان بعدم الاكتمال وبالطابع التجريبى، لذلك يمكن اعتبار عدم التجانس النصى تجسيدًا للتناقضات الاجتماعية والثقافية ودليلاً قويًا عند البحث فى تلك التناقضات وتطورها.

ويخلص فيركلاو إلى أن التركيز على الإبداع والتهجين وعدم التجانس الخطابى فى تحليل الخطاب الإعلامى يتفق مع طبيعة العصر. فنحن نعيش فترة من التغيير السريع والمستمر فى المجتمع والثقافة، وتلعب وسائل الإعلام دورًا مهمًا فى تصوير وتشجيع عمليات التغيير الأكثر عمومية، وبالتالى تظل ممارسات وسائل الإعلام فى حالة تقلب دائم، وينعكس ذلك أيضًا فى الممارسات الخطابية لوسائل الإعلام بصفة عامة.

ويطرح فيركلاو نقطة مهمة لكنها تثير قدرًا من الجدل والخلاف تتعلق بطبيعة الإبداع، والعلاقة بين الإبداع والتناص، إذ يرى أن الإبداع فى الممارسات الخطابية مرتبط بظروف اجتماعية معينة – ظروف التغيير وعدم الاستقرار، ويمكن أن يكون لفظ " الإبداع" مضللاً بما يحمله من دلالة على النزعة الفردية. فالإبداع الخطابى ناتج من الظروف الاجتماعية، وليس إنجازًا من جانب أفراد يتمتعون بصفات (إبداعية) معينة. ثم يقارن فيركلاو بين التحليل النصى للنصوص ـ بالمعنى الواسع الذى سبق استعراضه ـ وبين تحليل الصياغة المتبادلة للنصوص the intertextual analysis of texts أو ما يعرف بالتناص، ويركز التناص على الخط الفاصل بين النص وممارسة الخطاب فى إطار العمل التحليلى، كما ينظر التناص إلى النص من منظور ممارسة الخطاب ويتابع آثار ممارسة الخطاب فى النص. ويهدف التناص أيضًا إلى حل تشابك الأنواع الأدبية والخطابات المختلفة الممزوجة فى النص، وفى أحيانٍ كثيرة يكون هذا الخليط معقدًا جدًا فى ظل ممارسة الخطاب الإبداعية.

من هنا يكون السؤال المطروح هو : ما هى الأنواع الأدبية والخطابات المستخدمة فى إنتاج النص؟، وما هى آثار هذه الأنواع والخطابات فى النص؟، إذ قد نجد فى النص الوثائقى (أو الفيلم التسجيلى) مزيجًا من الأنواع الأدبية التى تقدم المعلومات والإقناع والترفيه. وهذا التعقيد – الذى يمثله التناص والذى يتحقق بمزج الأنواع الأدبية والخطابات – ينعكس بدوره على النص فى عدم تجانس المعنى والشكل.

فى هذا السياق يميز فيركلاو بين التحليل اللغوى بطبيعته الوصفية وبين تحليل التناص الذى يميل إلى التأويل. فالملامح اللغوية للنصوص توفر الدليل الذى يمكن استخدامه فى تحليل التناص. من هنا يمكن القول بأن التناص يمثل نوعًا معينًا من التأويل ـ أى تأويل ـ يضع النص فى موقعه من الأنظمة الاجتماعية لممارسات الخطاب، أى " نظام الخطاب " فهو تأويل ثقافى لأنه يضع النص المعين داخل إطار الثقافة المكونة لشبكات أنظمة الخطاب، بينما التحليل اللغوى يركز على ما يوجد على الورق أو على الشريط المسموع أو المرئى. فى المقابل يعتمد المحلل فى

تحليل التناص على الفهم الاجتماعى والثقافى، وقد يمثل ذلك مشكلة بالنسبة للذين يتوقعون أشكالاً أكثر " موضوعية " من التحليل، رغم أنه من السهل الإفراط فى تقدير موضوعية التحليل اللغوى. ومع ذلك فإن الربط بين التحليل اللغوى للنصوص وتحليل التناص يعتبر إجراءً مهمًا لسد الثغرة بين النص واللغة من ناحية، والمجتمع والثقافة من ناحية أخرى.

الممارسة الاجتماعية الثقافية

يقول فيركلاو إن تحليل بُعد الممارسة الاجتماعية الثقافية للحدث الاتصالى يمكن أن يتم على مستويات مختلفة من التجريد، فقد يتضمن هذا التحليل سياق الموقف المباشر للحدث، أو السياق الأوسع نطاقًا للممارسات المؤسساتية التى ينغرس الحدث بداخلها أو فى السياق الأوسع منه، أى سياق المجتمع والثقافة، وتكون كل هذه المستويات مهمة لفهم حدث اتصالى معين، ويمكن تناول كثير من جوانب الممارسة الاجتماعية الثقافية فى التحليل النقدى للخطاب، ولكن قد يكون من المفيد أن نميز بصفة عامة بين ثلاثة جوانب : الاقتصادى، والسياسى (المتعلق بمسائل القوة والأيديولوجية)، والثقافى (المتعلق بمسائل القيمة والهوية).

إن إطار العمل الذى يقترحه فيركلاو يتفق مع اتجاهات مختلفة ومتنوعة لاختيار بؤرة الاهتمام، فيمكن تفضيل التركيز على ممارسة الخطاب، سواء على عمليات إنتاج النص أو على عمليات استهلاك النص، أو يمكن تفضيل التركيز على النص ذاته، ولكن من المهم الاحتفاظ بالنظرة الشاملة تجاه الأحداث الاتصالية.

ويركز فيركلاو على التحليل اللغوى للنصوص.. وعلى تحليل التناص.. وعلى التحليل الاجتماعى الثقافى الانتقائى، ولكن ماذا يقصد بانتقائية التحليل الاجتماعى الثقافى؟.. يجيب فيركلاو : " تعتبر مناقشة الممارسة الاجتماعية الثقافية مناقشة انتقائية لأننى لا أكتب كمحلل ثقافى أو فى علم الاجتماع، بل بصفتى محللاً للخطاب له اهتمام بنوع محدد من الخطابات هو الخطاب الإعلامى ".

تحليل نظام الخطاب

ويصل فيركلاو إلى ثانى المنظورين التوأمين داخل التحليل النقدى للخطاب الإعلامى، وهو نظام الخطاب الذى يقصد به كيفية تركيبة الخطاب من حيث تكوينات الأنواع الأدبية والخطابات والتنقلات داخل نظام الخطاب والتغيرات فى علاقته بأنظمة الخطاب المجاورة له اجتماعيًا، وإذا كان الإعلام يحتل مركزًا متوسطًا - بحسب كلام فيركلاو - بين نظم الخطاب العامة ونظم الخطاب الخاصة، فإن وسائل الإعلام تدخل تغييرات على الخطاب العام الأصلى من أجل الاستهلاك المحلى.

إن هذا المركز المتوسط والعلاقات الخارجية بين نظام الخطاب الخاص بوسائل الإعلام ونظم الخطاب العامة والخاصة المجاورة له اجتماعيًا – مثل: أنظمة الخطاب الخاصة بالكتب – يمثلان الأساس لفهم نظام الخطاب الخاص بوسائل الإعلام والعلاقات الداخلية بين الأنواع الأدبية والخطابات المكونة له.

لقد ظل نظام الخطاب الخاص بوسائل الإعلام يتشكل بواسطة التوتر القائم بين مصادره العامة من ناحية وأهدافه الخاصة من ناحية أخرى، حيث يعمل هذان العنصران كقطبى جذب متعارضين بالنسبة للخطاب الإعلامى. لذلك يعاد تشكيل نظام الخطاب الإعلامى باستمرار من خلال إعادة تحديد علاقاته وإعادة رسم حدوده مع أنظمة الخطاب العامة والخاصة المشار إليها. بالإضافة إلى ذلك فإن عمليات التفاوض وإعادة التفاوض بين الممارسات الخطابية العامة والخاصة، التى تحدث داخل نظام الخطاب الإعلامى لها تأثير على العلاقة فيما بين هذه الممارسات وبين الخطاب العام والخاص بصفة عامة فى مجالات أخرى من الحياة الاجتماعية.

وبالتالى فإن البحوث المتعلقة بأنظمة الخطاب الإعلامى لابد أن تتبنى نظرة أوسع نطاقًا حيث تمتد حدود هذه الأنظمة إلى داخل التغييرات الرئيسية فى المجتمع

والثقافة، وتنطبق تلك الملاحظة – على سبيل المثال – على العلاقة بين نظام الخطاب التقليدى بدرجة أكبر والمتعلق بإذاعة الخدمات العامة وبين أنظمة الخطاب التجارى المتعلق بالسوق والنزعة الاستهلاكية consumerism.

إن الفكرة العامة التى يؤكد عليها فيركلاو هى أن العلاقة بين المؤسسات والممارسات الخطابية ليست علاقة بسيطة أو واضحة، فالمؤسسات المختلفة تتقاسم فى النهاية ممارسات خطابية مشتركة. ويمكن أن تكون ممارسة خطابية معينة موزعة توزيعًا معقدًا عبر مؤسسات عديدة. على سبيل المثال: ربما تمتد جذور الإعلان فى أنظمة الخطاب الخاصة بإنتاج وتوزيع واستهلاك السلع، ولكن الإعلان أصبح أيضًا عنصرًا فى أنظمة الخطاب الخاصة بالمؤسسات المختلفة مثل: التعليم والطب والفنون. لذلك يجب أن يهتم تحليل الخطاب دائمًا بالعلاقات والتفاعلات والتواطئات بين المؤسسات والمجالات الاجتماعية وأنظمة الخطاب المتعلقة بها. فيجب أن يكون هذا التحليل حساسًا لرصد أوجه التشابه فى التنظيم الاجتماعى والممارسات الخطابية فيما بين المؤسسات المختلفة.

ورغم أن الإعلام قد يمثل حالة واضحة لمثل هذه العلاقات المرنة إلا أن هذه الصفة منتشرة على نطاق واسع اجتماعيًا. كذلك تجدر الإشارة إلى أن الخطاب الإعلامى قد يؤثر فى تشكيل أنظمة الخطاب المجاورة له اجتماعيًا كما يتأثر بها. أى أن العلاقة بينهما علاقة جدلية معقدة. وعلى سبيل المثال تتمتع أشكال النصوص التليفزيونية بأهمية ثقافية كبيرة، وتوجد هذه الأشكال كنماذج فى العديد من المجالات العامة المتنوعة كالتعليم، حيث نجد شكل الحديث الذى يتم إجراؤه مع شخصية معروفة فى إحدى الصحف مستخدمًا على نطاق واسع فى مجال التعليم العالى فى إطار الكتب التى تعرض لأفكار هذه الشخصية المشهورة، كما نجده أيضًا فى بعض المجلات.

ويؤثر الخطاب الإعلامى أيضًا على ممارسات الخطاب فى المجالات الخاصة، حيث يقدم نماذج للتفاعل فى المحادثات بين الأشخاص فى الحياة الخاصة وفى الحياة

اليومية، وقد يكون من الصعب حل التشابك بين العلاقات الخارجية بين أنظمة الخطاب من ناحية، وبين العلاقات الداخلية بين الخطابات والأنواع الأدبية داخل نظام الخطاب الإعلامى من ناحية أخرى، ولكن التفرقة بينهما مهمة فى حالة تحليل أنظمة الخطاب. ويقرر فيركلاو أن كلاًّ من العلاقات الخارجية والداخلية تتضمن علاقات اختيارية relation choice وعلاقات متسلسلة chain relation .

فمن ناحية العلاقات الخارجية، تتعلق العملية بكيف يؤثر نظام الخطاب الإعلامى أو يستولى على الإمكانيات المتاحة فى أنظمة الخطاب المجاورة له. أما من ناحية العلاقات الداخلية، فالعملية تتعلق بوصف نماذج الممارسات الخطابية البديلة المتاحة داخل نظام الخطاب الإعلامى والشروط التى تحكم الاختيار من بينها.

وتختلف الممارسات الخطابية فيما بينها من حيث وظيفة كل منها، فهى تقدم أشكالاً formats متباينة من الأنماط الرئيسية من الإنتاج الإعلامى، وهكذا نجد ممارسات خطابية مختلفة بالنسبة للأنباء والأفلام الوثائقية والدراما والفوازير والبرامج والمسلسلات التليفزيونية التى تعالج مشكلات الحياة الاجتماعية، وبالمثل نجد ممارسات خطابية مختلفة بالنسبة للأنباء المهمة والأنباء الثانوية والتعليق والمقالات الرئيسية فى الصحف.

ويتابع فيركلاو أن تصنيف الممارسات الخطابية بحسب وظيفتها يمكن أن يتم على مستويات متنوعة، ولكن توجد أيضًا بدائل بالنسبة لأى نوع معين من الناتج output، ويخضع اختيارها لشروط مختلفة، ويضيف: " لقد أشرت إلى العلاقات المتسلسلة chain relations، حيث اقترحت إمكانية اعتبار الحدث الاتصالى فى وسائل الإعلام كسلاسل من الأحداث الاتصالية، وتكون هذه السلاسل داخلية فى جزء منها (عملية إنتاج النص داخل مؤسسة إعلامية تعتبر سلسلة من الأحداث الاتصالية)، وخارجية فى جزء منها أيضًا، ذلك أن مصدر الأحداث الاتصالية يقع

فى أحد طرفى السلسلة خارج الوسيلة الإعلامية، كما هو الحال بالنسبة للأحداث الاتصالية (المحادثات، المناقشات، التقارير) التى قد تكون النصوص الإعلامية ذاتها مصدرًا لها.(Fairclough،1995)

إن وصف نظام الخطاب فى وسائل الإعلام يتعلق بتحديد ما هى الأحداث الاتصالية الداخلية والخارجية التى ترتبط بعلاقات متسلسلة، كما يتعلق بتحديد أنواع التحولات التى تمر بها النصوص فى انتقالها عبر حلقات هذه السلاسل، وكيف تكون النصوص المبكرة فى السلسلة مغروسة فى النصوص اللاحقة بها.إن العلاقات الاختيارية choice relations والعلاقات المتسلسلة chain relations تلتقى فى تقرير نظام الخطاب، إذ يجب تحديد علاقات الاختيار عند كل وصلة فى السلسلة.

ويرى فيركلاو أن تحليل التناص لنص معين يتعلق بفك تشابك الأنواع الأدبية والخطابات الممزوجة فى علاقة اختيارية فى نظام الخطاب. كما يتعلق تحليل التناص أيضا بغرس العلاقات embedding، أى كيف تؤدى التحولات التى تمر بها النصوص فى انتقالها عبر السلاسل إلى ترك آثار من شأنها غرس علاقات داخل تلك النصوص.

وفى محاولته التوصل إلى خصائص نظام الخطاب الإعلامى، يوصى فيركلاو المحللين بأن يتذكروا باستمرار سؤالين مهمين قد تكون لهما إجابات مختلفة بالنسبة للأجزاء المختلفة من نظام الخطاب الإعلامى المعقد، وهذان السؤالان هما :

(أ) إلى أى مدى تكون الممارسات الخطابية الإعلامية أحادية unitary، وإلى أى مدى تكون متنوعة؟

(ب) إلى أى مدى تكون الممارسات الخطابية الإعلامية مستقرة، وإلى أى مدى تكون قابلة للتغيير؟

وهذان السؤلان مرتبطان ببعضهما بعضا، ففى المجتمع المستقر والمحافظ تكون الممارسات الخطابية أحادية ومستقرة، وهناك أيضا ضغوط مؤسساتية ومهنية تجاه الممارسة الأحادية. فالأشكال القياسية الموحدة أو النمطية تقلل تكاليف الإنتاج وتتفق مع توقعات جمهور القراء أو المستمعين أو المشاهدين، بينما تكون الممارسات الخطابية فى المجتمع غير المستقر متنوعة وقابلة للتغيير.

ويوضح فيركلاو مسألة القابلية للتنوع فى الممارسات الخطابية من زاوية وجود عدد من البدائل المتاحة بالنسبة لنوع معين من الإنتاج الإعلامى مثل الفيلم الوثائقى التليفزيونى، حيث توجد تلك القابلية للتنوع بين أفكار وصراعات سياسية وأيديولوجية، واختلافات فى الرأى المهنى أو الفنى، ومحاولات لإرضاء أذواق مجموعات خاصة من الجماهير.

وتظهر مسألة القابلية للتنوع أيضًا فى استهلاك النص : ما هى نظم الخطاب ألتى تستخدمها الجماهير للإقبال على النصوص الإعلامية؟ وهل تتحدث الجماهير أو تكتب عن هذه النصوص فى حياتها الخاصة أم فى المجالات العامة، وما هى العوامل الاجتماعية ذات الصلة بهذا الاختيار؟

ويشدد فيركلاو على أن الممارسات الخطابية الإعلامية المتغيرة وعلاقتها بالتغيرات الاجتماعية والثقافية الأوسع نطاقًا تمثل موضوع اهتمام خاص، ويمكن فهم التغيير باعتباره تغييرًا فى علاقات الاختيار أو العلاقات المتسلسلة (الخارجية أو الداخلية) .

ثم ينتقل فيركلاو لشرح مصطلح " نمط الخطاب " discourse type الذى يستخدمه للإشارة إلى تكوينات الأنواع الأدبية والخطابات المستقرة نسبيًا داخل نظام الخطاب. إذ إن الأنواع الأدبية تحدث فى صيغ توافقية معينة مع الخطابات الأخرى. فعلى سبيل: المثال قد تجمع إذاعة الحزب السياسى بين الخطبة السياسية وإجراء حديث interview ومحاكاة لمحادثة منزلية، كذلك ظهرت " الدردشة " كنمط خطابى مهم يجرى فى استوديوهات التليفزيون ويتضمن تأليفًا

تركيبيًا لعناصر المحادثة مع عناصر الترفيه. ومن المهم هنا التعرف على أنماط الخطاب المتميزة التى ظهرت فى نظام الخطاب الإعلامى، مثل: الدردشة والمناقشة التليفزيونية.

ويقترح فيركلاو التركيز على فهم مدى استقرار أو عدم استقرار التوليفات configurations التى تُكوّن الأنماط الخطابية، بحيث يمكن أن نتصور وسائل الإعلام كمجموعة مترابطة فيما بينها من أنظمة الخطاب. فأنظمة الخطاب الخاصة بالإذاعة والتليفزيون والصحافة تتميز كل منها عن الأخرى من نواحى مهمة نظرًا لاختلاف تكنولوجيا الاتصال وطبيعة ومتطلبات الوسيلة الإعلامية، ولكنها أيضًا تتشابه من نواحٍ مهمة.

ويؤكد فيركلاو على ضرورة فحص نظام الخطاب الإعلامى بوصفه مجالاً للقوة والهيمنة الثقافية، ففى الماضى تم وصف وسائل الإعلام فى أحيان كثيرة كما لو كانت تقع تحت سيطرة ممارسات واحدة مستقرة مفروضة من أعلى. وبالطبع لا ينطبق هذا الوصف على وسائل الإعلام المعاصرة رغم أنه قد يحمل بعض الحقيقة بالنسبة لملامح معينة من الممارسة الإعلامية، وكان ذلك الوضع أكثر انطباقا منذ ثلاثين عاما مضت عنه الآن، حيث كان هذا الوصف يعنى ضمنًا وجود فلسفة إعلامية تحدد طبيعة نظام الخطاب الإعلامى، وأن هذه الفلسفة أو النموذج مكوّن من عدد من المبادئ والقواعد المحددة جيدًا والموحدة والمستقرة. ولكن رغم أن هذه الفلسفة أصبحت غير مناسبة الآن، فهذا لا يعنى عدم نشوء مجالات للقوة والسيطرة. فمن الصعب التسليم بمقولة إن وسائل الإعلام المعاصرة تعتمد على التنوع الثقافى، ومن ثمّ النظرة إلى وسائل الإعلام بوصفها متعددة الممارسات بشكل كبير، مع عدم وجود شبكة علاقات قوى تسيطر على النظام الإعلامى كله.

إن هذه النظرة تؤيد فكرة نظام الخطاب الإعلامى التى سبق تعريفها، أو على الأقل تؤدى إلى إنشاء نموذج مختلف لنظام الخطاب الإعلامى باعتباره "فسيفساء" mosaic من الممارسات. لكن يصعب التسليم تمامًا بفرضية أن وسائل الإعلام تعمل

فى إطار من الحريات والتنوع الثقافى والاجتماعى، بل على العكس يرى فيركلاو أن هناك قدرًا من التنوع نتيجة تطور تكنولوجيا الاتصال، ولكن أيضًا توجد شبكات من القوة والهيمنة داخل وسائل الإعلام

ويضيف فيركلاو أن هناك منهجًا آخر يمكن اتباعه عن طريق التساؤل عن كيف يمكن أن يؤدى التنوع والتعدد الإعلامى دوره داخل نظام من السيطرة. ومن المفيد الرجوع هنا إلى مفهوم غرامشى عن الهيمنة hegemony باعتباره نظرية للقوة والسيطرة تقول بتحقق الهيمنة من خلال تحقيق الموافقة الشعبية عليها بدلاً من الإكراه، كما تؤكد هذه النظرية على النواحى الثقافية للسيطرة والتى تتوقف على ترابط معين فيما بين الممارسات المتعددة.

وبذلك فإن السؤال الذى يطرح نفسه حول نموذج الهيمنة هو: هل تترابط الممارسات الخطابية المتنوعة فيما بينها داخل نظام الخطاب بطرق تؤدى فى مجموعها إلى استدامة علاقات السيطرة؟ وكيف يتحقق ذلك؟

خلاصة القول أن فيركلاو يوافق على وجود المسلمات الخاصة بوجود آليات وشبكات للقوة والهيمنة على النظام الإعلامى، إلا أن أشكال وآليات تلك السيطرة تختلف عما كان يحدث فى الماضى، وهنا يستعير فيركلاو مفهوم غرامشى عن الهيمنة الناعمة بدلاً من الهيمنة والسيطرة عبر الإكراه، أى الهيمنة عبر التعدد والاختلاف الشكلى، ومثل هذه الحالة تتفق ومفهوم فيركلاو للخطاب الإعلامى ودوره فى المجتمع. فالخطاب الإعلامى يحمل أفكارًا وأيديولوجيات متعددة ويتأثر ويؤثر فى المجتمع، لكنه فى النهاية يخضع للقوى الاجتماعية المسيطرة والمهيمنة اقتصاديًا وسياسيًا.

ورغم أهمية نموذج فيركلاو إلا أنه يعتبر نوعًا من التفكير النظرى المجرد، حيث لم يُختبر على نحوٍ جاد، ولم يستخدمه سوى عدد محدود من البحوث والدراسات، وهذا الوضع يختلف عن منهجية ميشيل فوكو فى تحليل الخطاب، والتى ربما

اكتسبت طابعًا عمليّا تطبيقيّا عميقًا وشاملاً ساعد على تطوير وتجديد مكوناتها النظرية. كذلك فإن نموذج فيركلاو يبدو من الصعب تطبيقه، حيث يتطلب جهدًا كبيرًا، ويلزم الباحث بإجراءات معقدة بعضها غير محدد، أو يصعب الاتفاق حولها مثل: التحليل الاجتماعى الثقافى الانتقائى، والعلاقات بين أنظمة الخطاب الخاصة والعامة، وكيفية تحديد العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية فى أنظمة الخطاب، والعلاقات الاختيارية والعلاقات المتسلسلة.

* * *

الفصل الثالث

ممارسات ونماذج تطبيقية

يهدف هذا الفصل إلى تقديم نماذج وأمثله لممارسة تحليل الخطاب، بحيث يتوفر لقارئ الكتاب نماذج تطبيقية لبعض من الأطر النظرية والأدوات التحليلية التى ناقشها الكتاب بشكل نظرى فى الفصلين الأول والثانى.

يقدم المبحث الأول نموذجًا لتحليل الخطاب القومى العربى فى مجلة الهلال خلال الفترة من ١٩٢٤ – ١٩٣٩، اعتمد على استخدام أداة مسار البرهنة، ويشمل هذا المبحث على عرض نظرى شامل لمفهوم الخطاب ومسار البرهنة والإجراءات المنهجية التى تم اتباعها فى عملية التحليل، ثم يعرض لكيفية تطبيق مسار البرهنة فى تحليل عدد من مواد الرأى التى نشرت فى الهلال خلال الفترة من ١٩٢٤ – ١٩٣٩، والتى تناقش قضايا هوية مصر وعلاقة مصر بمحيطها العربى، فضلاً عن ملامح الفكر القومى العربى آنذاك.

ويمثل هذا المبحث جزءًا من رسالتى لنيل درجة الماجستير فى الصحافة، والتى تناولت بالتحليل الخطاب القومى العربى فى الصحافة المصرية خلال الفترة من ١٩٢٤ـ ١٩٥٢، إلا أننى فضلت ولاعتبارات المساحة نقل الأجزاء الخاصة بمسار البرهنة والإجراءات المنهجية الخاصة بتحليل الخطاب. والاكتفاء أيضًا بتحليل الخطاب القومى العربى فى مجلة الهلال، والتى كانت من أكثر المجلات المصرية اهتمامًا بقضايا عروبة مصر والفكر القومى العربى(*).(شومان، ١٩٩٠).

وقد ألزمت نفسى بنقل هذه الأجزاء من رسالتى للماجستير كما وردت فى النص

(*) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى النص الكامل للرسالة بكلية الإعلام – جامعة القاهرة.

الأصلى وبدون تعديل أو تغيير تقريبًا، وذلك رغم ما بها من نواقص وعيوب نظرية ومنهجية. إذ أعتقد أن هذه العيوب ترتبط دائمًا بالمحاولات الأولى فى أى مجال علمى، لكن نشرها ـ بل ونقدها ـ ربما يفيد فى إدراك بعض القضايا النظرية والمنهجية التى وردت فى هذا الكتاب، والتعرف عن قرب على إحدى محاولات ممارسة تحليل الخطاب الصحفى.

وأود أن أشير إلى أننى قدمت نقدًا شاملاً للإطار النظرى والمنهجى والممارسة التطبيقية التى قمت بها، حيث خلطت بدون وعى معرفى أو منهجى بين بنيوية ميشيل فوكو وتأويلية بول ريكور ومساهمات دومينيك مانجينو رغم ما بينهم من خلافات نظرية ومعرفية. وقد أدى هذا الخلط إلى عيوب فى عملية التحليل تجسدت فى الجمع بين القراءة التأويلية أحيانًا، والتحليل فى أحيان أخرى، كذلك فإن ضغط التقاليد العلمية السائدة آنذاك، وعدم الاعتراف بشرعية تحليل الخطاب، دفعتنى نحو الجمع الغريب بين المؤشرات الكمية والكيفية فى تحليل الخطاب القومى العربى، كما أن محدودية معرفتى بمدارس تحليل الخطاب دفعنى أيضًا إلى اختيار عينة هائلة من مواد الرأى التى نشرت فى الصحافة المصرية بكل تياراتها تقريبًا، وخلال فترة زمنية طويلة من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٢، الأمر الذى أدى إلى ضعف مستوى التحليل ونوعيته. (شومان، ٢٠٠٤).

أما المبحث الثانى فهو عبارة عن ترجمة ـ مع بعض الشرح ـ لمثال أورده فيركلاو لتوضيح إطار التحليل النقدى للخطاب والمفاهيم التى استخدمها، ومستويات التحليل التى يتطلبها إجراء مثل هذه النوعية من التحليل .

المبحث الأول

تحليل الخطاب القومى العربى فى الصحافة المصرية١٩٢٤ – ١٩٣٩

أولاً : مســار البـرهـنــة

١ـ مفهوم الخطاب

إن مادة الرأى فى الصحافة المصرية التى عالجت أبعاد الفكرة العربية " هوية مصر ـ القومية العربية – الحركة القومية " قدمت بشكل صريح أو مضمر مجموعة من الأفكار ووجهات النظر تمثل فى مجموعها خطابًا قوميًا عربيًا أنتجه صحفيون ومفكرون وسياسيون من مصر ومن الأقطار العربية الأخرى، ويسعى هذا الخطاب إلى التأثير على جمهور القراء، وذلك رغم ما قد يحتويه من تناقضات وتحولات رئيسية وثانوية.

ويرتبط انتشار استخدام مصطلح الخطاب بالاتجاه البنيوى الذى ساد الثقافة الغربية فى الستينيات وعبّر عن نفسه فى الكثير من دراسات اللغة وعلم النفس والأنثروبولوجيا والتاريخ، ولا تُعرف البنيوية بأنها فلسفة قائمة بذاتها، وإنما مجرد منهج للبحث أو اتجاه فى التفكير. من هنا ظهرت العديد من المدارس والتيارات التى تنتسب إلى البنيوية (جعفر، بدون تاريخ، ص ١٣) . فقد أسس " ليفى شتراوس " البنيوية الأنثروبولوجية " وميشيل فوكو " البنيوية الثقافية " وجان لاكان " البنيوية السيكولوجية، وألتوسير "البنيوية الماركسية". (انظر على سبيل المثال : ميشيل فوكو، ١٩٨٧، وكود ليفى، ١٩٨٣).

وتعتمد البنيوية اللغوية على دراسات عالم اللغة السويسرى " فردينان دى سوسير" (١٨٥٧ـ ١٩١٣) الذى وضع منهج " إحلال البنيوية محل الذرية والنظر إلى اللغة على أنها صورة مادة والأخذ بمبدأ النسق الذى يعطى الصدق للنظام الكلى على أجزائه أو عناصره" (زكريا إبراهيم، د. ت، ص٧٧، ص ص ٢٤،٢٣). وتأثر البنيويون بمنهج سوسير فى اللغة (جعفر، بدون تاريخ، ص٢٣ : ص٢٥). كما

اهتموا بتحليل أى نص أو وثيقة كبنية، واجتهدوا فى البحث عن المضمون غير المعلن، وتحليل العلاقة بين النص ومنتجه، والعلاقة بين النص والقارئ، وكذلك العلاقة بين الفهم والشرح و يبرز هـذا الاهتمام فـى أعمال بـول ركيـور. (Paul Ricceur, 1983)

ورغم هذه الموضوعات المشتركة إلا أن ممثلى البنيوية لا يتفقون فيما بينهم حول مفاهيـم أو وجهات نظر محددة بصدد كثير من القضايا، وإنما توجد بينهم نقاط اتفـاق ونقاط اختلاف تنعكـس عـلى محاولاتهم لتعريـف واستخدام مجموعة من المصطلحات وأدوات التحليل مثل المنطوق والخطاب والإشكالية والقطيعة المعرفية والممارسة الخطابية وإنتاج المنطوق.

ويهتم الباحث هنا بالتعرض لاجتهادات البنيويين بشأن تعريف واستخدام الخطاب، مع الإشارة إلى مصطلح المنطوق لارتباطه الكبير بمصطلح الخطاب، ويقدم D.Maingueneau ستة تعريفات أو استخدامات مختلفة لمصطلح الخطاب هى : (D. Maingueneau، 1976, pp.11-12)

١ـ أن الخطاب discourse مرادف لمفهوم الكلام parole عند سوسير بالمعنى المتعارف عليه فى علم اللغويات البنيوية، أى دراسة الكلام وليس اللغة بما يستتبع ذلك من وضع المتكلم فى الاعتبار دون الاهتمام باللغة كبنية وكقواعد.

٢ـ الاستخدام الثانى للخطاب لا يتم فيه الربط بين الخطاب وبين الفاعل، ولكن الخطاب يستعمل كوحدة لغوية ذات بعد يتجاوز الجملة، أى التعامل مع الخطاب كنص جاهز، كرسالة كلية، كمنطوق enounce.

٣ـ أن يدمج الخطاب فى التحليل اللغـوى، بحيـث يوضع فـى الاعتبـار مجمـوع قواعـد تسلسل الجمل المكونة للمنطـوق، ويعـد Harris.Z الأمريكـى أول مـن اقترح ذلك.

٤ـ وفقًا لما يمكن أن يطلق عليه المدرسة الفرنسية، يطرح مفهوم المنطوق(*) بالتعارض مع مفهوم الخطاب فى تعريف واقعى للغاية، فالخطاب هو المنطوق من وجهة نظر نظام الخطاب (الميكانيزم الخطابى) الذى تحكم إنتاجه ظروف وشروط معينة، ومن ثمّ فإن النظر إلى النص من منظور بنائه كلغة يجعل منه منطوقًا، ومن ناحية أخرى فإن دراسة ظروف أو شروط إنتاج هذا النص ذاته تجعل منه خطابًا.

٥ـ ثمة استخدام خامس لمفهوم الخطاب، وذلك بإدماج نظريات إنتاج المنطوق(**) enunciation في إطار مفهوم الخطاب. ووفقًا لهذا المعنى يقول Benevenist: إن إنتاج المنطوق يفترض التحول الفردى للغة لتكون خطابًا، وهو يقدم التعريف التالى : يجب استخدام الخطاب فى أوسع معانيه، أى من حيث هو كل إنتاج للمنطوق يفترض متكلمًا Acuter ومستمعًا auditor، بحيث يتوافر عند الأول قصد التأثير على الآخر بطريقة ما.

٦ـ يعكس الاستخدام الأخير لمفهوم الخطاب بعض الفروق مع الاستخدامات الأخرى، حيث يطرح مفهوم الخطاب بالتعارض مع مفهوم اللغة، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالى :

المنطوق + موقف الاتصال = خطاب

تراث لغوى = خصوصية

معنى = دلالة

(*) يعرف D.Maingueneau المنطوق بأنه تتالى الجمل الصادرة بين فراغين دلاليين، أى وحدة دلالية، أو مجموعة جمل تشكل وحدة على المستوى الدلالى. Ibid.p.11.

(**) يعرف D.Maingueneau إنتاج المنطوق بأنه استخدام وتشغيل اللغة عن طريق فعل فردى، أى أنه لا يرادف مفهوم الكلام عند سوسير، ولكنه يتعلق بفعل إنتاج المنطوق وليس بنص المنطوق، و إنتاج المنطوق هو الفعل الذى يقوم المتكلم بموجبه بتهيئة وتسخير اللغة لحسابه الخاص، ويتفاعل مع اللغة كأداة ويُحوّل اللغة إلى خطاب ويصبح متكلمًا. Ibdi.p.102

ويؤكد Paul Ricceur أن الخطاب هو عكس ما يطلق عليه اللغويون نظام أو كود لغة، فالخطاب هو حدث الكلام، وإذا كان الرمز (الصوتى أو المعجمى) هو الوحدة الأساسية للكلام، فإن الجملة هى الوحدة الأساسية للخطاب، ولهذا فإن التركيب اللغوى للجملة هو الذى يساند نظرية الخطاب كحدث.

وهناك أربعة مستويات للخطاب تميزه عن اللغة هى :-

١- أنه يتحقق دائمًا بشكل مادى وفى الحاضر، بينما نظام اللغة هو نظام فرضى وخارج عن الزمن.

٢- أنه يشير إلى فاعله نظرًا لوجود مجموعة معقدة من الآليات، مثل: الضمائر، بينما اللغة لا تتطلب بالضرورة وجود أى فاعل.

٣- يشير الخطاب إلى عالم هو الذى يقوم بصياغته والتعبير عنه وتقديمه، بينما رموز اللغة تشير فقط إلى رموز أخرى داخل نفس النظام، ومن خلال الخطاب تتجسد زمنيًا فى الحاضر الوظيفة الرمزية للغة، كما أن اللغة ليس لها عالم خاص، وتتجرد عن التجسيد وعن الذاتية.

٤- بينما اللغة هى فقط شرط من شروط الاتصال لأنها توفر الرموز، فإن تبادل الرسائل يتم من خلال الخطاب فقط، بما يعنى أن الخطاب ليس له عالم فقط ولكن له أيضا عالم آخر هو المتوجه إليه بالحديث (Paul Ricceur, 1983, pp. 184 - 185)

ورغم تعدد وتداخل واختلاف مفاهيم الخطاب، فمن الثابت أن المصطلح يعتبر تاريخيًا مقولة من مقولات علم المنطق تعنى التعبير عن فكر متدرج بوساطة قضايا مترابطة، ثم أجيز بعد ذلك إطلاقه على العمل البحثى بدءًا من القرن السابع عشر، وكان ملتقى بن رشيق بالجزائر فى مايو ١٩٨٠ قد تبنى مصطلح الخطاب بوصفه أفضل من الحديث أو القول وأشمل من المقال، وأيسر من الأقاويل المستخدمة عند قدامى الفلاسفة العرب(دياب، ١٩٨٧، ص ٧) .

٢ـ قراءة الخطاب القومى العربى فى الصحافة المصرية

فى ضوء العرض السابق لمفهوم الخطاب واستخداماته المختلفة يتبنى الباحث مفهومًا للخطاب يعتمد على اجتهاد كل من Benevenist & Ricceur ، حيث يتجلى الخطاب كرسالة من مرسل إلى متلق بغرض التأثير فى الأخير، أى أنه خطاب غرضى يتم إنتاجه، وكذلك قراءته فى ظروف مادية ومعنوية محددة، مما يؤشر إلى أهمية دراسة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المحيطة بالخطاب بوصفه حدثًا تاريخيًا.

ويميز Benevenist بين مستويين لإنتاج المنطوق التاريخى – الخطابى، فالأول سرد لأحداث الماضى دون تدخل من المتكلم، وكأن أحدًا لا يتكلم أو أن الأحداث تقص نفسها. أما المنطوق التاريخى فهو يشمل كل ذلك إذ يوجد شخص يوجه الكلام إلى آخر أو يعلن عن نفسه كمتكـلـم، وينظم ما يقوله داخل إطار أو مقولة. **(D.Maingueneau, 1976, p.104)**

كذلك يميز Ricceur بين هدف الكاتب وهدف النص، إذ إنهما غير متطابقين فى الخطاب، وهذا الانفصال بين المعنى اللغوى للنص وبين الهدف العقلى هو مصدر الثراء الحقيقى لتسجيل الخطاب، لكن هذا لا يعنى أنه يمكن إدراك نص دون كاتب. فالصلة بين المتحدث والخطاب لا تنهدم ولكنها تصبح معقدة وممتدة، ولكن مجال النص ينفصل عن أفق الكاتب، وما يقوله النص هو أهم بكثير مما أراد الكاتب أن يقوله، وكل تفسير يجد أساليبه وطرقه من داخل محيط المعنى الذى انفصل عن نفسية الكاتب. **(Paul Ricceur,1983, p.187)**

ويعرض محمد عابد الجابرى للعلاقة بين الخطاب وكل من الكاتب والقارئ انطلاقًا من الحديث عن الفكر العربى أو أى فكر معين هو مجموعة من النصوص، والنص رسالة من الكاتب إلى القارئ، وهو خطاب. فالاتصال بين الكاتب والقارئ إنما يتم عبر النص تمامًا مثلما أن الاتصال بين المتكلم والسامع إنما يتم عبر

الكلام ٠٠ فالكاتب يريد أن يقدم فكرة أو وجهة نظر معينة فى موضوع معين وهذا خطاب، والقارئ يتلقى هذه الفكرة أو وجهة النظر كما يستخلصها هو من النص وبالطريقة التى يختارها، وهذا تأويل للخطاب أو قراءته. (Paul Ricceur, 1983, p.187)

هناك إذن جانبان يكوّنان الخطاب، ما يقوله الكاتب وما يقرؤه القارئ، ويتابع الجابرى تصويره للعلاقة بين النص والقارئ بقوله إن الخطاب هو مقول الكاتب ومقروء القارئ ، فهو يخضع لقدرة الكاتب على بنائه، وكذلك قدرة القارئ على إعادة بناء النص أى قراءته بإبراز أشياء والسكوت عن أشياء أو تقديم أو تأخير أشياء أخرى، فيساهم القارئ فى إنتاج وجهة النظر بل إحدى وجهات النظر التى يحملها الخطاب صراحة او ضمنًا، وفى هذا الإطار هناك القراءة الاستنساخية التى تقبل أو تريد الوقوف عند حدود التلقى المباشر. والقراءة التأويلية التى ترفض التلقى المباشر وتساهم بوعى فى إنتاج وجهة النظر التى يحملها الخطاب، بل تهدف إلى إعادة بناء الخطاب لتجعله أكثر تماسكًا، ثم هناك القراءة التشخيصية التى تهدف إلى تحدى عيوب الخطاب وكشف تناقضاته وإبراز ما أهمله أو سكت عنه أو تستر عليه. (الجابرى، ١٩٨٢، ص ٨ : ١٠).

ويقوم الباحث فى إطار دراسة وتحليل الخطاب القومى العربى بذلك النوع الأخير من القراءة أى القراءة التشخيصية. وهذه القراءة كما يقول (ألتوسير) تقوم ضد القراءة الساذجة التى تجد فى النص تجليًا للمعنى، أو كأن الواقع نفسه خطاب ناطق يتكلم بلسان حاله. إن القراءة التشخيصية Lecture systomale تقوم على اكتشاف الكلام من وراء الصمت وإدراك المعنى من خلال السياق، وتمييز العناصر بالرجوع إلى صميم البنية نفسها (الجابرى، ١٩٨٢، ص ١٠). وتمكن هذه القراءة من إدراك مكونات الخطاب وتحولاته الأساسية والشروط التاريخية – الاجتماعية التى أثرت فى إنتاجه أو قراءته، فضلاً عن المعلن والمضمر فى ثنايا الخطاب، وكذلك علاقته بالخطابات الأيديولوجية السائدة فى المجتمع.

من جهة أخرى اعتمد الباحث على مقولات علم اجتماع المعرفة فى قراءة الخطاب القومى العربى، وخاصة فيما يتعلق بظروف إنتاجه ومنتجيه. ويرتبط علم اجتماع المعرفة بمحاولات " كارل مانهايم " فى تعريف الأيديولوجيا وتحليل دورها فى المجتمع، حيث انتهى إلى أن أى حقيقة تصدر عن واقع اجتماعى، ومن ثمّ تصبح المواقف التاريخية والأوضاع الاجتماعية هى المصادر الأولية التى تشكل النسق العقلى والفكرى للإنسان (الجابرى، ١٩٨٢، ص ١). إن المعرفة هى بالضرورة تاريخية لا يمكن تصورها كشىء مطلق خارج موقف اجتماعى معين، أى أنها ترتبط دائما بالأوضاع الاجتماعية والمصالح الاقتصادية والسياسية للطبقات والفئات المختلفة. **(K.Manheim,1948)**

والمنهج العام فى علم اجتماع المعرفة هو ما يطلق عليه الإسناد Imputation، ويعنى أن تنسب فكرة معينة أو نسق من الأفكار إلى فلسفة معينة، أو إسنادها إلى مراحل زمنية وظروف اجتماعية تاريخية. أما الإسناد السوسيولوجى فهو أهم أنواع الإسناد لأنه يحدد بدقة أكبر علاقة فلسفة معينة فى الحياة فى إطارها المرحلى التاريخى بالطبقات الاجتماعية والجماعات التى تبنتها أو اعتقدتها واعتمدت عليها فى تحديد وصفها فى المجتمع. **(K. Manheim, 1952, pp.130-140)**

٣- إجراءات مسار البرهنة

تعرف البرهنة بأنها فعل معقد غائى، تتوافق غايته مع انضمام المستمع (أو القارئ) إلى أطروحة يعرضها المتكلم (أو الكاتب) وتتيح تسلسلاً مبنيًا من البراهين المختلفة، والتى تربطها استراتيجية شاملة. وعادة ما توجد البراهين فى صورة تراتبية، أى أن برهانًا معينًا يساهم فى إرساء برهان آخر على مستوى أعلى .. وفضلاً عن ذلك فإن العلاقات بين الجمل المختلفة تخضع لعدد متناهٍ من الميكانيزمات، سواء تعلق الأمر بالنظم الشكلية (أى المسلمات وقواعد الاستنتاج) أو بالروابط الأقل صرامة، كما هو الحال فى غالبية عمليات البرهنة. ويجب عدم

الوقوع فى فخ رد اللغة إلى جوهر لغوى – منطقى بسيط – إذ إن اللغة لها وظيفة برهانية ووظيفة منطقية، وينبغى مراعاة الوظيفتين معًا لأن المتكلم فى سبيل بناء عملية البرهنة ينطلق من أساس وأرضية اتفاق يفترض أنها مشتركة مع المستمعين، مثل: الوقائع والحقائق والافتراضات الحدسية والقيم وتراتب القيم والأماكن أو المواقع.(Maingueneau, 1976, pp. 163-168)

إن مسار البرهنة يحافظ على بنية النص ويسمح بتحليل الأيديولوجية ضمن التسلسل الخطابى وتسلسل البرهنة ونوعية المنطق والحجج التى يعطيها المتكلم لإثبات هذا العنصر أو ذاك (مارلين نصر، ١٩٨٣، ص ٥٦). وقد وقع الاختيار على مسار البرهنة مع محاولة تطويره من خلال الممارسة وإكسابه مؤشرات كمية فى التحليل، ولا سيما أن المناهج والمقارنات أو الأدوات المنهجية التى تنتمى إلى العلوم " اللسانية " أكثر قابلية للتطوير والاستجابة لمتطلبات وأهداف البحث، شرط تحديد المفاهيم وإجراءات العمل والالتزام بها.

وفيما يلى عرض لأهم المفاهيم والإجراءات التى نظمت عملية قراءة وتحليل الخطاب القومى العربى فى الصحافة المصرية اعتمادًا على مسار البرهنة :

(أ) الأطروحة (*):

يعتمد أى نص على مجموعة من الأطروحات والبراهين التى تترابط وتسعى إلى تحقيق هدف أو أهداف معلنة أو مضمرة، وعادة ما تدور الأطروحة أو تجسد فكرة ما ترتبط بسياق وأهداف النص أو تخرج عنه، أى أن شرط اعتبارها أطروحة أن يكون لها دور فى بناء المنطق الداخلى للنص، وأن تكون متنامية باتجاه تحقيق أهدافه

(*) طرح، يطرح، طرحًا : ألقاه، رماه، طرح القضية للبحث والمناقشة، والأطروحة جمعها أطروحات، وهى رسالة علمية يكتبها الطالب للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه (المعجم العربى الأساسى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩، ص ٧٨٩) .

بغض النظر عن أن ترد فى جملة أو فقرة، أو يصاحبها برهان أو براهين، إذ قد تنهض أطروحة بذاتها بدون براهين (*).

(ب) البرهان (**)

يتركز دور ومكان البرهان أو البراهين فى التدليل على أو مَنطقة الأطروحة – إذا جاز التعبير – وإثبات صلاحيتها،ولا يشترط دائما أن تصاحب كل أطروحة براهين أو برهان ما.

(ج) طريقة التحليل :

ـ قراءة النص الذى يدخل فى عينة التحليل، ثم استخراج الأطروحات الواردة فيه..وتسجل كل أطروحه على حدة مع البرهان أو البراهين التى تصاحب كل أطروحة.

ـ يراعى فى عملية استخراج الأطروحات والبراهين مراعاة أقل قدر من التدخل، سواء بالاختصار أو الحذف، أى أن الأطروحة تستخرج تقريبًا من النص بصياغة منتجها الأصلى. ورغم صعوبة هذه العملية إلا أنها تضمن – إلى حد كبير – موضوعية مسار البرهنة حيث لا تسمح بتدخل ذاتية الباحث إلا فى أضيق الحدود.

ـ تظهر بعض الأطروحات أكثر من مرة فى سياق النص، كذلك الحال بالنسبة لأحد البراهين، وفى هذه الحالة تحصل كل أطروحة أو برهان على عدد التكرارات

(*) اعتمدت مارلين نصر فى دراستها عن التصور القومى العربى فى فكر جمال عبد الناصر على أن لكل أطروحة مجموعة من الحجج والبراهين التى تدلل عليها وتثبتها أو تنفيها، إلا أنها لم تستخدم الأطروحات والحجج مما قلل من نتائج دراستها حيث إن الحجة تفصل وتوضح الأطروحة فقط، كذلك فقد كانت تستخلص طبيعة كل حجة ولا تهتم بمضمون أو سياق الأطروحات.

(**) برهن، يبرهن، برهنة: الشيء وعليه أقام الدليل. وبرهان جمعها براهين، وهو الحجة البينة الفاصلة، وفى الفلسفة القياس المؤلف فى مقدمات يقينية، وفى الرياضيات ما يثبت قضية من مقدمات مسلم بها (المعجم العربى الأساسى، مرجع سابق، ص ١٥١).

التى حصلت عليها، وبعدد التكرارات التى حصلت عليها كل أطروحة تتجلى أهميتها فى سياق النص.

ـ ترتبط عملية استخراج الأطروحات والبراهين فى النص، وحصر تكرارات كل منها بمنتج كل أطروحة ومناسبة وتوقيت إنتاج النص، وموقعه ومساحته فى الصحيفة أو المجلة التى تخضع للتحليل.

ـ تحصل كل أطروحة وكل برهان على رقم مسلسل يساعد فى نهاية مرحلة التحليل على حصر إجمالى البراهين والأطروحات فى كل صحيفة أو مجلة، وبالتالى مقارنتها مع بقية الصحف والمجلات فى كل فترة من فترات التحليل على حدة.

ـ بعد الانتهاء من استخراج أطروحات وبراهين مسار برهنة الخطاب القومى العربى فى الصحافة المصرية، قام الباحث فى ضوء خبرة العمل، وبالاستعانة بثلاثة محكمين(*) بتحديد تعريفات إجرائية للقضايا التى ارتبطت بالفكرة العربية فى مصر، وحازت بدرجات مختلفة اهتمام الخطاب القومى العربى فى الصحافة المصرية، وموقفه منها سواء بالرفض أو التأييد .

ـ قام الباحث بتوزيع الأطروحات والبراهين فى كل صحيفة أو مجلة – كلٌّ على حدة ـ على قضايا استمارة التحليل، والتزم بنتائج هذا التوزيع فى عملية تحليل الخطاب القومى العربى فى الصحافة المصرية. ويساعد هذا التوزيع على تقدير مدى اهتمام كل صحيفة بقضايا الفكرة العربية كميًا وكيفيًا الأمر الذى يكسب أداة مسار البرهنة مصداقية أعلى فى التحليل.

(د) قياس صدق وثبات مسار البرهنة :

اعتمد الباحث على مقياس لرتب التشابه تم استخدامه فى بحث بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية (لمزيد من التفاصيل انظر: مصطفى سويف وآخرون، ١٩٧٧، ص ١٢).

(*) على مختار، ونجوى خليل، وعبد العزيز الوكيل.

وقام الباحث بتدريب ثلاثة من زملائه الباحثين على خطوات استخراج الأطروحات والبراهين من النص، ثم عهد إلى كل منهم على حدة باستخراج الأطروحات والبراهين من ٢٠ نصًا من النصوص التى خضعت للتحليل(*)، كما قام الباحث منفردًا بإجراء تحليل مماثل على النصوص ذاتها. وقد جاءت نتائج القياس والمقارنة مرضية اعتمادًا على مقياس للرتب مكون من(**):

ـ تشابه تام أم تطابق	٥
ـ تشابه إلى حد كبير	٤
ـ تقارب	٣
ـ تقارب طفيف	٢
ـ لا تشابه	١

ثم قام الباحث بعد شهر من تاريخ إجراء قياس رتب التشابه بتكرار التحليل على نفس المواد وبين الباحثين الثلاثة، وجاءت النتيجة مرضية.

وقام الباحث بتكرار نفس القياس بين الباحثين الثلاثة لتقدير مدى الصدق والثبات، فيما يتعلق بتوزيع وتصنيف أطروحات وبراهين الخطاب القومى العربى على استمارة قضايا التحليل.

وأعيدت التجربة بعد شهر وكانت النتائج تنحصر بين تشابه تام وتشابه إلى حد كبير.

(*) بعد أن استخرج الباحثون الثلاثة الأطروحات والبراهين جرت عملية تبادل، حيث قام كل منهم على حدة بتقدير رتب التشابه، وقد انحصرت النتيجة فى وجود تشابه إلى حد كبير وتقارب.

(**) جرى اختيار هذه القوالب بطريقة عشوائية داخل كل مرحلة من مراحل التحليل وبواقع (٥) نصوص عن كل مرحلة من مراحل التحليل.

ثانيًا : نموذج تحليل الخطاب القومى العربى فى مجلة الهلال ١٩٢٤ – ١٩٣٢

مجلة الهلال مجلة شهرية أصدرها جورجى زيدان عام ١٨٩٢، وتخصصت فى نشر موضوعات أدبية وثقافية عامة من إنتاج كبار الأدباء والمثقفين فى مصر وبعض الأقطار العربية. وكان محررو المجلة يساهمون فى تحرير بعض الاستطلاعات والتعليقـات والأحاديث وقليل مـن الأخبـار. وابتعـدت الهلال عن تناول الموضوعات السياسية، فلم تكن طرفًا مباشرًا فى الصراع الحزبى، كما أنها لم تتخذ مواقف معلنة ضد الاحتلال، الأمر الذى ضمن لها عدم التعرض للمصادرة أو التعطيل.

١- وصف مادة التحليل والقائم بالاتصال :

قام الباحث بمسح الأعداد التى صدرت من مجلة الهلال منذ مارس ١٩٢٤ إلى ديسمبر ١٩٣٢ وبلغت ٨٨ عددًا. حيث كانت سنة الهلال عشرة أشهر فقط(*)، وتعوض المجلة القراء عن الشهرين الباقيين بكتب تصدرها وتهديها إلى المشتركين. كانت الهلال تصدر فى ١٢٠ صفحة من القطع الصغير، واتسمت موضوعاتها بالتنوع من حيث طبيعة الموضوعات وأفكارها ومستواها التحريرى. وكانت تنشر موضوعات فى الأدب العربى والعالمى وموضوعات مترجمة، ودراسات ومقالات تاريخية وفلسفية، وتخصص أبوابًا ثابتة للطب والمرأة والرحلات وغرائب الطبيعة والجغرافيا، بالإضافة إلى نشر الإنتاج الأدبى من قصة وشعر ونقد أدبى.

وكان المقال هو القالب التحريرى السائد فى الهلال، كما اهتمت المجلة بالأحاديث واستطلاعات الرأى. أما الأخبار فكانت قليلة. من هنا يمكن القول بأن الهلال كانت مجلة رأى إلا أن موضوعاتها وآراء الكتاب والمكاتبين كانت تتعلق بشئون أدبية وثقافية عامة. وكانت الهلال تظهر بغلاف فاخر يحمل أحيانًا صورًا

(*) لم تكن مجلة الهلال تصدر خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر من كل عام.

شخصية أو موضوعية أو رسومًا زخرفية أو لوحات فنية لكبار الفنانين، واهتمت الهلال بالصور المصاحبة للموضوعات، والتى كانت تلعب دورًا بالغ الأهمية فى تعريف القراء ببعض الكتّاب أو توضيح أفكار بعض الموضوعات.

ورغم اهتمام الهلال بالثقافة العربية ودعوة المقالات المنشورة بها إلى عروبة مصر، إلا أن الدعوة للقومية المصرية الضيقة ظلت تظهر على صفحات الهلال، ويؤكد أصحابها استنادًا إلى دراسات تاريخية وإثنية أصالة القومية المصرية وانفصال مصر عن الدائرة العربية (انظر على سبيل المثال: سلامة موسى، إلى أيهما نحن أقرب الشرق أم الغرب؟ الهلال فى يوليو ١٩٢٧، المصريون أمة غربية، الهلال فى ديسمبر ١٩٢٨).

وقد خضعت سبعة موضوعات رأى مختلفة للتحليل، منها ثلاثة مقالات لسلامة موسى(*) وحديث للأمير عمر طوسون، واستطلاعان للرأى نشرا على ثلاثة أجزاء، أجرى الاستطلاع الأول طاهر الطناحى الصحافى بالهلال، وشارك فيه طه حسين ومنصور فهمى وعلى إبراهيم وعلى عبد الرازق وهدى شعراوى وأحمد شوقى. أما الاستطلاع الثانى فقد أجراه كريم ثابت مع وزير عراقى ووزيرى إيران وأفغانستان فى مصر ووزير خارجية مصر، ونشر هذان الاستطلاعان فى عددى مايو ويونيو ١٩٣١. ويلاحظ أن استطلاعات الهلال تقترب من الحديث إذ لا يوجه المحرر سؤالاً واحدًا أو عدة أسئلة للمشاركين فى الاستطلاع، وإنما يكون مجال الحديث مفتوحًا، ويدور حول فكرة أو عنوان الاستطلاع.

وتتعدد مهن ومجالات اهتمام منتجى مادة الخطاب القومى العربى فى الهلال، إلا أن سلامة موسى يظل صاحب النصيب الأوفر ضمن القائمين بالاتصال (٣

(*) من بين هذه المقالات مقال بعنوان: " المصريون أمة غربية " نشرته الهلال مع تعليق منها بأنه رأى طريف مبنى على ما كتبه بعض علماء التاريخ والآثار من أهل الغرب، أى أن الهلال تحفظت على المقال بطريقة غير مباشرة (الهلال عدد ديسمبر ١٩٢٨).

مقالات فى ٧ أعداد) وعددهم ١٣ شخصية، كان من بينهم ١٠ شخصيات مصرية، بالإضافة إلى وزير عراقى ووزيرى أفغانستان وإيران فى مصر، وتجدر الإشارة إلى أهمية المناصب السياسية أو الأدبية التى يشغلها منتجو مادة الخطاب القومى فى الهلال، الأمر الذى يكسب خطاب الهلال أهمية خاصة ومصداقية أعلى، كذلك فإن سيطرة المصريين على إنتاج مادة التحليل، بالإضافة إلى تركيز أسئلة استطلاعات الهلال على نهضة مصر وعلاقاتها بالشرق قد مَكّن قضية انتماء مصر وقضية الموقف من الفكرة الشرقية ليتصدرا على التوالى اهتمامات الخطاب القومى فى الهلال.

٢- تحليل الخطاب القومى العربى فى الهلال :

عالجت (٧٣) أطروحة و (٢٢) برهانًا قضايا الفكر القومى العربى فى الهلال خلال الفترة من ١٩٢٤ إلى نهاية ١٩٣٢. ويمكن عرض هذه القضايا فى :

(أ)عروبة مصر :

حظيت هذه القضية بجل اهتمام خطاب الهلال، حيث اختصت بها (٣٥) أطروحة و (١١) برهانًا. وحصلت كل منها على تكرار واحد، باستثناء أطروحة طه حسين التى يَدّعى فيها عدم قدرته على فهم الخصومة بين أنصار الحضارة العربية والحضارة المصرية القديمة والحضارة الغربية، فهذه الخصومة " لغو يولد الحقد والضغينة ". ويذهب طه حسين فى أطروحة ثانية إلى أن هناك أشياءً بقيت من الحضارة المصرية القديمة كاللغة والدين، وأشياء أخرى بقيت ولابد أن نعنى بها كالفن والأساطير، كذلك الحال بالنسبة للحضارة العربية فقد بقى منها اللغة والدين وهما مقومان أساسيان للحياة المصرية الحديثة. " إذن فحظ الحضارة العربية فى حياتنا كحظ الحضارة المصرية القديمة ".

ويدعو طه حسين للأخذ من الحضارة الغربية مع الاحتفاظ بالشخصية المصرية التى لا خوف عليها من الفناء، حيث عجز الفرس واليونان والرومان والعرب والأوربيون أن يفندوها، ومن ثمّ وجب على المصريين الحفاظ على وجودهم

وشخصيتهم. إن الشخصية المصرية لدى طه حسين تبدو كحقيقة سرمدية غير قابلة للفناء أو التحول، ومن هذه الزاوية فإن على مصر أن تنتقى من التراث العربى الإسلامى، ومن الحضارة الفرعونية، وكذلك من الحضارة الغربية الحديثة، وهذا الموقف الانتقائى ينفى ما يراه طه حسين من خصومة مصطنعة بين أنصار الحضارات الفرعونية والعربية والغربية، لكن من الواضح أن نقطة ارتكاز طه حسين ومحور خطابه هى فكرة الشخصية القومية المصرية (طه حسين، **حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟ الهلال، عدد أبريل ١٩٣١**).

ويقدم سلامة موسى (٨) أطروحات ترسم ملامح تصور مخالف لأفكار طه حسين، فهو لا يحاول التوفيق بين تراث مصر الفرعونى والعربى والإسلامى، وإنما ينفى علاقة مصر بالأمة العربية بل وبالشرق كمفهوم متداول فى تلك المرحلة "فنحن – يقصد المصريين – لسنا شرقيين ولكن أوربيين فى الدم والمزاج والثقافة واللغة " ببراهين ما قام به الخديوى إسماعيل وتحقيق مصلحة العرب والعالم، ويضيف فى أطروحة ثانية أن مصر من سلالة لا تخالف سلالة الأوربيين لأن شعوب البحر المتوسط من جبهاته الأربع تنتمى إلى أصل واحد، ببراهين ما تقدمه بعض الدراسات، ويفسر سلامة موسى أسباب الاستعمار الأوربى لمصر بأنه نتاج تقدم الصناعة فى أوربا وتأخرها فى مصر، وأن تقدم مصر الصناعى يحقق الاستقلال. (**سلامة موسى، المصريون أمة غربية، الهلال عدد ديسمبر ١٩٨٢**).

وفى مقال تالٍ يذهب سلامة موسى إلى أن اللغة المصرية هى أصل اللغة العربية، فقد رحل المصريون إلى شبه الجزيرة العربية والجزء الشرقى من إفريقيا بدليل أن أصنام العرب مصرية الأصل، ببراهين ما أثبته أحمد بك كمال فى دراساته، بالإضافة إلى كون أصنام العرب تحاكى آثارًا وآلهة مصرية فرعونية. (**سلامة موسى، ثقافة مصر بين العرب، الهلال، عدد فبراير ١٩٢٩**).

ورغم ما يبدو من خلافات بين أفكار طه حسين وسلامة موسى إلا أنهما يتفقان

على مركزية الشخصية المصرية، مع عدم التعرض لأى فكرة تتجاوز القومية المصرية الضيقة نحو قيام رابطة أوسع، سواء كانت عربية أو شرقية أو إسلامية.

فى مقابل ذلك يدعو خطاب الهلال على لسان عمر طوسون ومنصور فهمى وعلى عبد الرازق وهدى شعراوى وأحمد شوقى ومحمد شرف إلى روابط أعم وأشمل من رابطة القومية المصرية الضيقة، كما يؤكدون بدرجات متفاوتة على مركزية العروبة والإسلام فى تحديد هوية مصر وحضارتها القادمة، وأن الأمة المصرية تتصل بكل ما ساقه إليها الماضى.

ويتابع منصور فهمى فى أطروحة ثانية أن غالبية المصريين تلقوا اللغة والدين عن العرب، ويؤكد " أن المصريين ينتمون إلى محيطهم الذى يفعل فى سحنهم ويحكم كل محيط جغرافى فى السحن والصورة، لكنهم عرب باللغة والأفكار"، ويسعى منصور فهمى للتأليف بين المصرية والعروبة والإسلام والفكرة الشرقية، فيقرر أنه لا تناقض بين المصرية والعروبة إذ يمكن الانتماء لهما معًا، كما أن الرابطة العربية أو الشرقية أو الإسلامية أو العالمية لن تضر أى مصرى أيًا كان دينه أو سلالته أو عصبيته. (**منصور فهمى، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟ الهلال، عدد أبريل ١٩٣١**).

أما على عبد الرازق فيؤكد أن اللغة العربية خالدة كالدين الإسلامى ببرهان أنها لم تنـــدثر كالهيروغليفية. فاللـــغة العربية والإسلامية والعـــادات الشـرقية أشياء لن تموت أو تزول، ويرى فى أطروحة ثانية ضرورة أن تكون الحضارة العربية والإسلامية من حيث: اللغة والدين والتقاليد والروح العامة من مقومات الحضارة المصرية القادمة.(**على عبد الرازق، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟ الهلال، عدد أبريل ١٩٣١**).

وتتفق مع أفكار على عبد الرزاق (١٠) أطروحات وردت فى أحاديث على إبراهيم وهدى شعراوى وأحمد شوقى ومحمد شرف على التوالى. (على إبراهيم

وهدى شعراوى وأحمد شوقى ومحمد شرف، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟ الهلال، عدد أبريل ١٩٣١). وقد اتفق الأول على ضرورة الاقتباس من الحضارة الفرعونية بنفس القدر الذى نقتبس به من حضارة الإغريق والآشوريين. أما محمد شرف فقد انتقد صراحة الفن والعلم الفرعونى لأنه لا يلائم العصر الحديث.

خلاصة القول أن مجلة الهلال سمحت بظهور موقفين متعارضين بشأن هوية مصر، الأول: يدعو للقومية المصرية الضيقة، رغم بعض الاختلاف فى الأسس التى يستند إليها، والثانى: يدعو إلى التزام مصر بالتراث العربى الإسلامى والدعوة لرابطة أوسع وأشمل من القومية المصرية.

(ب)ـ مكانة ودور مصر

ناقشت (٧) أطروحات و (٢) برهان مكانة ودور مصر، حيث تظهر مصر كزعيمة للشرق ستقود العالم العربى، وتبدو هذه الزعامة أمرًا طبيعيًا ومنطقيًا فى ضوء أن مصر سبقت الشعوب الشرقية إلى النهضة، كما أنها كانت تقود الحضارة الإسلامية العربية منذ عهد المماليك كما يقول على عبد الرازق، ويضيف محمد شرف فى أطروحه ثانية : " مصر مرشحة للنهضة وربما لقيادة العالم "، كما أن دخولها عصبة الأمم المتحدة يعرف الغرب بما يجهله عن مصر، بينما تميزت أطروحات هدى شعراوى برصد نهضة المرأة المصرية وكونها ستصبح قدوة للمرأة العربية.

(ج)ـ صلات بين الأقطار العربية :

يقل اهتمام خطاب مجلة الهلال بهذه القضية إذ يقرر الوزير العراقى نورى السعيد فى أطروحة واحدة أن اللغة والثقافة العربية تربطان بين الأقطار العربية (نورى السعيد، الشعوب العربية والشرقية، كيف تتحد وكيف تتعارف، الهلال، عدد مايو، ١٩٣١)، ويمكن تفسير قلة اهتمام خطاب الهلال بصلات مصر والعرب فى ضوء طبيعة واتجاهات الأسئلة التى تم طرحها على قسم من النخبة المصرية، ودارت

حول هوية مصر الحضارية وعلاقاتها الخارجية، فقد استحوذت إجابات هذه الأسئلة على النصيب الأكبر من مادة التحليل، ومن ثمّ لم تترك حيزًا كبيرًا – كما سيتضح فيما بعد – للصلات بين العرب أو مستقبل العلاقات العربية، وكذلك للموقف من الاستعمار.

(د)- مستقبل العلاقات العربية :

تؤيد أطروحتان الدعوة إلى التعاون العربى بصورة عامة، وقد وردت الأولى على لسان الوزير العراقى نورى السعيد، وتؤكد على وجوب تعاون وتعارف الأقطار العربية ببراهين تحقيق المصالح المشتركة ولدفع البشرية. أما الأطروحة الثانية فيقدمها عبد الفتاح يحيى وزير خارجية مصر آنذاك، وتشير إلى أهمية التعاون ونبذ الحروب بين شعوب العالم، مع اهتمام خاص بالدول الشرقية، الأمر الذى يفيد عالمية دعوة الوزير المصرى وخصوصية دعوة الوزير العراقى للأقطار العربية بالتعاون فيما بينها.

بينما تعالج (٣) أطروحات قضية التعاون الثقافى بين الشعوب العربية ببرهان واحد بالتركيز على أهمية تعاون العرب فى دعم وتطوير اللغة العربية، فى هذا المجال يشدد الطبيب المصرى الشهير (على إبراهيم) على صلاحية اللغة العربية لأن تكون لغة علمية ببرهان استخدامها بنجاح فى المجلة الطبية. (على إبراهيم، حضارتنا القادمة ·· فرعونية أم عربية أم غربية، الهلال؟ عدد أبريل ١٩٣١). ويضيف محمد شرف أن اللغة العربية قادرة على التعبير عن فنون وعلوم العصر، ومن ثمّ يدعو فى أطروحة ثالثة إلى تعاون العرب للحفاظ عليها وتطويرها.

هـ- تطور الفكرة العربية :

١- ملامح الفكرة العربية :

تهتم أطروحتان فقط بدون براهين بمناقشة هذا الجانب، وقد وردت الأولى فى حديث منصور فهمى، حيث يصور الرابطة العربية كرابطة تهدف إلى تهذيب اللغة

والثقافة، وذلك فى سياق محاولته للتوفيق بين العروبة والإسلام والمصرية والشرقية، انطلاقًا من أنها جميعًا دوائر تهدف إلى الخير والإصلاح.

أما الأطروحة الثانية فترد على لسان نورى السعيد الذى يتميز إدراكه للفكر القومى العربى بقدر أكبر من النضج والشمول مقارنة بالمثقفين والسياسيين المصريين، يقول : " الوحدة العربية حقيقة واقعة "، كما يدعو للتعاون بين الأقطار العربية.

٢ـ الموقف من الفكرة الشرقية :

تحتل هذه القضية المرتبة الثانية ضمن اهتمامات خطاب الهلال بعد قضية انتماء مصر، ويرجع ذلك إلى أن الأسئلة التى طرحها محررو الهلال على قسم من النخبة المثقفة المصرية، وعلى وزراء من مصر والعراق وإيران وأفغانستان، دارت حول النهضة الشرقية ودور مصر فى هذا المجال.

ومن المرجح أن اهتمام الهلال بالفكرة الشرقية يعكس قوة ظهور الفكرة آنذاك من جهة، واختلاطها بمفهوم الأقطار العربية والدول المستعمرة فى آسيا وإفريقيا وضرورة التضامن ضد الاستعمار من جهة ثانية.

وقد عالجت (٢٠) أطروحة و (٦) براهين هذه القضية، حيث وردت كلها لمرة واحدة وأيدت الدعوة إلى التعاون الشرقى عدا أطروحة واحدة عكست صعوبة تحديد مصطلح الشرق والغرب، وهى الأطروحة التى قدمها سلامة موسى، وتفيد بشكل غير مباشر رفضه لمفهوم الشرق، وبالتالى رفضه لفكرة التعاون الشرقى، ببراهين أنه لا توجد حدود جغرافية أو إثنية أو دينية أو تاريخية لتحديد الشرق أو الغرب وتؤيد بقية الأطروحات التعاون الشرقى، حيث تقرر أن الشرق يعيش نهضة كما أنه له ماض عريق، وتهتم أطروحتان بفكرة انضمام الدول الشرقية إلى جمعية الأمم. (عبد الفتاح يحيى، وزير خارجية مصر، الشعوب العربية والشرقية، كيف تتحدد؟ وكيف تتعارف؟ الهلال، عدد يونيو ١٩٣١).

أما وزير خارجية أفغانستان فى مصر فيشير إلى أن الشعوب العربية هى شعوب شرقية، ويدعو نورى السعيد إلى تعاون العرب مع الأقطار الشرقية، ورغم الاتفاق على أهمية تعاون الأقطار العربية وتضامنها فى مواجهة الاستعمار يقدم عمر طوسون رفضًا حاسمًا لفكرة قيام عصبة أمم شرقية ويدعو إلى اهتمام كل قطر شرقى ببعث الروح القومية الضيقة، ثم بعد ذلك يكون قيام عصبة أمم شرقية أمرًا سهلاً، أى أنه لا يرفض الفكرة ولكنه يرفض توقيت الدعوة والعمل إليها ببرهان ضعف الأقطار الشرقية. (حديث مع الأمير عمر طوسون، الهلال، يوليو ١٩٣٠). كذلك لا يرفض منصور فهمى الفكرة الشرقية، لكنه يدعو إلى التأليف والتوفيق بينهما وبين الفكرة القومية المصرية والرابطة العربية.

٣ـ الموقف من الجامعة الإسلامية

يؤيد خطاب الهلال فى (٣) أطروحات تأسيس الحضارة المصرية أو العربية الحديثة على أسس إسلامية مع الاقتباس عن الحضارة الراهنة، ويبدو الإسلام كرابطة تجمع الأمم الشرقية. ويهتم منصور فهمى بالتأليف بين الإسلام والعروبة والقومية المصرية فيقول : " هب أن الرابطة الإسلامية لإحياء مظاهر الدين ".

ثالثًا : نموذج تحليل الخطاب القومى العربى فى الهلال ١٩٣٢ — ١٩٣٩

دخلت الهلال فى سبتمبر ١٩٣٢ عقدها الرابع، وبهذه المناسبة أعلن كل من أميل وشكرى زيدان صاحبا المجلة والمشرفان على التحرير تجديدها وتحسينها، فصارت تطبع " بالروتوغرافور "، وتوسعت فى نشر الصور العادية والملونة والخرائط واستكتاب مشاهير الكتاب والأدباء، علاوة على تغيير بعض أبواب المجلة. لكن هذه التجديدات لم تشمل حجم وشكل الهلال أو سياستها التحريرية التى ظلت ثابتة، فقد ظلت الهلال مجلة ثقافية عامة بعيدة عن السياسة والصراع الحزبى وكانت تصدر ١٠ أعداد فى ١٠ أشهر، بالإضافة لكتابين تصدرهما المجلة فى الشهرين الباقيين هدية للمشتركين.

١ـ وصف مادة التحليل والقائم بالاتصال :

اهتمت الهلال بالثقافة العربية والإشادة بتراثها والتأكيد على أصالة العروبة وقدرتها على النهوض من جديد، وناقشت الهلال العلاقة بين العروبة والإسلام ودعت للوحدة العربية، وقد استخدمت الهلال فنونًا تحريرية مختلفة فى مقدمتها المقال بأنواعه والاستطلاع، وكان أكثرها اقترابًا من موضوع الدراسة استطلاع بعنوان: " جبهة من شعوب عربية " واستطلاع آخر حول توحيد الثقافة بين الأفكار العربية، فضلاً عن إصدار عدد خاص من الهلال فى أبريل ١٩٣٩ بعنوان: " العرب والإسلام فى العصر الحديث "، وناقشت فيه قضايا عروبة مصر ودورها العربى والإسلامى، وفكرة الخلافة الإسلامية.

ويلاحظ أن الهلال حرصت على عدم إعلان مواقفها تجاه هذه القضايا بشكل مباشر لكن اختيارها لنشر بعض المواد يكشف عن مواقفها، كذلك درجت الهلال على الإشادة بالملوك والحكام العرب. فى هذا السياق أشادت الهلال فى مقدمة عدد أبريل ١٩٣٩ بالملك فؤاد الذى " ورث حبه للعرب وتشجيعه لكل ما هو عربى عن جده البطل الفاتح إبراهيم باشا وعن والده الخديوى إسماعيل "(**الهلال**، عدد أبريل ١٩٣٩، ص ١٩٨).

أما بالنسبة لمادة تحليل الخطاب القومى العربى بالهلال فى هذه الفترة، فقد بلغت (١٠) موضوعات جاءت فى ٣٤.٥ صفحة واحتوت على استطلاعين للرأى و (٨) مقالات، وقد مهدت الهلال لنشر الاستطلاع الأول حول : جبهة من الشعوب العربية، وهل هى ضرورة؟ وماذا يجب لتأليفها؟ بمقالين : الأول لعبد الرحمن عزام يدعو فيه لقيام إمبراطورية عربية، والثانى لمحمود عزمى وحمل عنوانًا مشابهًا للاستطلاع، مما يرجح أن أفكار عزمى قد أثرت فى صياغة الهلال لهذا الاستطلاع، وخاصة أنه استخدم مفهوم شعوب عربية الذى يستخدمه عزمى دائمًا.

ويكشف تحليل توزيع القائمين بالاتصال وتوزيع مادة التحليل عن سيادة أفراد

النخبة المصرية وإسهامهم الكبير فى إنتاج مادة التحليل حيث شارك (١٠) مصريون من بينهم مكرم عبيد وطلعت حرب ومحمد حسين هيكل فى إنتاج هذه المادة، فى مقابل عبد الرحمن شهبندر السورى الجنسية واللبنانيين خليل مطران وفؤاد حمزة. وكان محمود عزمى هو أكثر منتجى مادة خطاب الهلال، حيث ساهم بمقالين أكد فى مقدمة أحدهما أنه من أوائل المصريين الذين عنوا فى العهد الحديث بالقضايا العربية نتيجة اتصاله بحملة ألوية الفكرة العربية فى مؤتمر لوزان عام ١٩٢٢ وزيارته لكل الأقطار العربية فى مهام صحفية. (محمود عزمى، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٨).

٢- تحليل الخطاب القومى العربى فى الهلال :

ناقش الخطاب القومى العربى فى الهلال قضايا الفكرة والحركة القومية العربية وانتماء مصر من خلال (١٠٤) أطروحة حصلت على (١٢٥) تكرارًا و (٣٦) برهانًا حصلت على (٤٧) تكرارًا، وتوزعت على القضايا التالية :

أ- عروبة مصر :

تراجع اهتمام خطاب الهلال فى هذه المرحلة بقضية انتماء مصر، فقد وردت (٣) أطروحات فقط وبرهانان تؤيد كلها وتدعم عروبة مصر، ويبدو هنا عدم الاهتمام بهذه القضية فى الهلال مقارنًا بالاهتمام الكبير الذى ظهر فى أغلب صحف تلك الفترة.

ب- مكانة ودور مصر :

ناقشت (٣) أطروحات وبرهان واحد مكانة مصر ودورها فى المحيط العربى، حيث يؤكد عبد الرحمن عزام أن مصر هى قلب الأمة العربية ببرهان أنه لا حياة لها إلا بذلك، ويترتب على ذلك نتيجة مهمة هى وجوب أن تكون مصر طليعة الدعوة إلى الوحدة العربية (عبد الرحمن عزام، الإمبراطورية العربية وهل آن لها أن تتحقق؟ الهلال، عدد فبراير، ١٩٣٤). أما محمد العشماوى وكيل وزارة المعارف المصرية فيرى لمصر دورًا قياديًا على طريق الاستقلال والنهضة دون أن يشير إلى هدف

الوحدة السياسية بين الأقطار العربية. (**محمد العشماوى، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية هل هو أهم الوسائل لتقدم نهضة الشرق العربى؟، الهلال، عدد يناير، ١٩٣٩**).

جـ- صلات بين الأقطار العربية :

تناول خطاب الهلال تلك الصلات فى (١٩) أطروحة و (٧) براهين توصلت لمجموعة من الصلات الثقافية الاجتماعية تتمثل فى: وحدة اللغة والثقافة والإقليم والحياة الاجتماعية والتاريخ، وتتكرر مكونات هذه الأطروحات بصياغات مختلفة مع إضافة عنصر الدين، وتنهض آمال النهضة والنضال من أجل الاستقلال كروابط معاصرة تجمع الأقطار العربية، وقد وردت الأطروحتان على لسان أحمد أمين (**أحمد أمين، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية، الهلال، عدد يناير، ١٩٣٩**) ومكرم عبيد على الترتيب (**مكرم عبيد، المصريون عرب، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣٩**). وفى إطار مقاومة الاستعمار كرابطة عربية جديدة تبرز فلسطين كتحدٍ جديد أثبت وحدة العرب وتضامنهم. وهكذا يجمع خطاب الهلال بين عناصر واعتبارات تاريخية وثقافية لها سمة معنوية وعناصر أخرى مادية واقعية ومستقبلية كوحدة الإقليم. (**بهى الدين بركات، جبهة من الشعوب العربية، هل هى ضرورة؟، الهلال، عدد ديسمبر، ١٩٣٨**).. ومقاومة الاستعمار والصهيونية.

د- مستقبل العلاقات العربية :

ظهرت الدعوة للتعاون دون تحديد صيغة معينة فى (٨) أطروحات وبرهانين، تشير فى مجملها إلى أهمية التعاون والاتحاد من أجل النهضة ومن أجل تحرير فلسطين، كما توضح أطروحتان أن العصر أصبح عصر التكتل والتحالفات الكبرى، لذلك تقترح إحدى الأطروحات تأليف جبهة عربية تعود بالنفع والخير على العروبة، وهكذا يربط خطاب الهلال القومى بين التعاون ومفاهيم النهضة والقوة، كما يبدو متأثرًا فى دعوته للتعاون بظاهرة التكتلات والأحلاف التى انتشرت فى أوربا فى الثلاثينيات وكانت بمثابة تمهيد لاندلاع الحرب العالمية الثانية، بينما حظيت قضية التعاون الثقافى العربى بالمرتبة الأولى ضمن اهتمامات خطاب

الهلال القومى بمستقبل العلاقات العربية، إذ حصلت على (٢١) أطروحة و (٤) براهين، تؤيد كلها الدعوة إلى التعاون أو الاتحاد الثقافى.

وتركز الأطروحات المؤيدة للتعاون أو الوحدة الثقافية على أهمية توحيد الثقافة وبرامج التعليم كخطوة أولية تمهد لأى تعاون سياسى وتدعم من التعاون الاقتصادى، كما تشير أطروحات أخرى إلى أن الوحدة الثقافية أرسخ من الوحدة السياسية لأنها ترتبط بما هو روحى ومعنوى وتستند إلى تراث ثقافى واحد، لكن محمد العشماوى وكيل وزارة المعارف. (محمد العشماوى، طه حسين، أحمد أمين، **توحيد الثقافة بين الأقطار العربية هل هو أهم الوسائل لتقدم نهضة الشرق العربى؟**. الهلال ، عدد يناير، ١٩٣٩)، ومحمد حسين هيكل (محمد حسين هيكل، **الاتحاد الثقافى بين الأمم العربية**، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣٩)، وطه حسين، وبهى الدين بركات يتفقون فى أربع أطروحات على التوالى على أن توحيد الثقافة العربية لا يعنى توحيد المناهج، ببرهان ضرورة أن تتفق المناهج مع احتياجات البيئة المحلية لكل قطر.

أما قضية الوحدة السياسية فقد ناقشتها (٩) أطروحات وبرهان واحد، حيث تعارض (٥) أطروحات قيام وحدة سياسية بين الأقطار العربية، وتقترح أشكالاً أخرى من التعاون الثقافى أو الاقتصادى. يقول أحمد لطفى السيد فى ثلاث أطروحات: "من الصعب بل والمستحيل أن تتحالف البلاد العربية تحالفًا سياسيًا"، ويضيف فى أطروحة ثانية: "أن السعى لتأليف هذا التحالف وهم من الأوهام، ببرهان اختلاف الأوضاع السياسية فى الأقطار العربية بين دول مستقلة وأخرى محتلة".(أحمد لطفى السيد، **جبهة من الشعوب العربية وهل هى ضرورة؟**. الهلال، عدد ديسمبر،١٩٣٨). ويرى بهى الدين بركات أن الظروف السياسية فى الأقطار العربية تجعل من الصعب تشكيل أحلاف سياسية.

ويقدم محمود عزمى (٤) أطروحات تؤيد قيام ما يسميه بجبهة من الشعوب العربية انطلاقًا من أنها حقيقة قائمة، ويضيف فى أطروحة ثانية: " أن مصلحة

الشعوب العربية جميعًا تقضى بتأليف جبهتها لأجل الدفاع عن كيانها، ويطالب أن تقوم هذه الجبهات على أساس إقناع الرأى العام، وأن تأخذ طريق الأحلاف حتى تراعى ما يسميه الروح الذاتية فى مختلف أجزاء البلاد العربية. (**محمود عزمى، جبهة من شعوب عربية ٠٠ ضرورة خلقها وكيفية تأليفها، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٨**). ويلاحظ أن عزمى يستخدم مفهوم جبهة " بلاد العربية " بدل البلاد العربية بالنعت، وذلك مراعاة – كما يقول – للاعتبارات الذاتية بين العرب.

وتهتم (٥) أطروحات و (٤) براهين بالدعوة إلى التعاون الاقتصادى بين الأقطار العربية، حيث يقترح خطاب الهلال على لسان محمود عزمى توحيد النقد ورفع الحواجز الجمركية. ويتابع عزمى أن مصالح العرب الاقتصادية تحتم وحدة العرب ببراهين محدودية ثروة سكان كل قطر عربى، وتوافر إمكانيات هائلة لدى العرب مجتمعين، ويطرح الاقتصادى المعروف طلعت حرب تصورًا للتعاون الاقتصادى العربى يعتمد على أموال مصر وخبرة أبنائها، أى إنه يقدم تصورًا لعلاقات تعاون مصرية عربية تعكس طموح البرجوازية المصرية آنذاك للتوسع فى الدول العربية، سواءً لاستثمار أموالها أو البحث عن فرص عمل جديدة للمصريين، ويتابع طلعت حرب أن كل ما يحيط بنا فى العالم من تطورات سياسية واقتصادية يدفع نحو التعاون الاقتصادى العربى بما يفيد على مستوى الخطاب المضمر ضرورة التكتل الاقتصادى لمواجهة الأحلاف السياسية والتكتلات الاقتصادية الكبرى فى أوروبا. (**طلعت حرب، التعاون الاقتصادى بين الأمم العربية، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٩**).

هـ- أعداء الفكرة العربية :

عارض خطاب الهلال الاستعمار من خلال (٦) أطروحات وبرهان واحد، حيث يؤكد أن الاستقلال يمثل أحد شروط التحالف السياسى العربى لأن الاستعمار لن يسمح بقيام وحدة، ببرهان أن مصالح الاستعمار ترفض وحدة العرب. (**عبد الرحمن شهبندر، لو استقل العالم العربى، الهلال، عدد نوفمبر،**

١٩٣٩). ومن ثمّ فإن الشرق العربى فى حاجة إلى الوحدة كى يقاوم التيار الأوروبى الجارف كما يقول مكرم عبيد الذى يضيف أطروحة ثانية بضرورة تحقيق الاستقلال والنهضة والرخاء.

و- ملامح الفكرة العربية :

عالج خطاب الهلال القومى العربى هذه القضية من خلال (٢٣) أطروحة و(٩) براهين تقدم عناصر عقلانية وأخرى رومانسية خاصة بالفكر والحركة العربية فى هذه المرحلة. إن خطاب الهلال يحفل بالجانبين حيث يجرى تأييد ومناقشة الفكرة العربية من حيث عوامل نجاحها والعقبات التى تواجهها وأساليب تحقيقها، وفى هذا الإطار يقدم محمود عزمى (٣) أطروحات تقارن بين العربية والشرقية والجامعة الإسلامية، ويخلص إلى أن الرابطة العربية هى الأقوى.(**محمود عزمى،أيهما نقدم الرابطة الشرقية أم الإسلامية أم العربية؟، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٣**).

أما عبد الرحمن عزام فيعرض من خلال (٥) أطروحات لقوة رسوخ الفكرة العربية، ثم يعرض لشروط نجاح العرب فى تحقيق وحدتهم وهى: الإيمان بالنفس، وبأن " الأمة العربية موجودة بصفات محددة.. وهى ليست فى طور التكوين"، كما أنها ـ أى الأمة العربية ـ " وحدة اجتماعية وثقافية وليدة تاريخ مشترك ".

ويقدم محمود عزمى شروطًا أخرى لنجاح الوحدة العربية فى (٧) أطروحات، هى عدم طغيان الاعتبار الدينى على ما هو اجتماعى أو سياسى ببراهين قوة الاعتبار الدينى فى بلاد المغرب والسعودية واليمن واحتمال تخوف مسيحى لبنان، ولذلك فهو يطالب فى مقال ثان بفصل الدين عن الدولة. وقد حصلت هذه الأطروحة على تكرارين مما يشير لأهميتها فى سياق برهنة عزمى الذى يضيف عقبة أخرى تتمثل فى النمو الغريب للفكرة العربية فى مصر ببرهان " التردد بين الفرعونية والإسلامية الشرقية وفكرة الانتماء لثقافة البحر المتوسط ".

ويتابع عزمى تحليل العقبات التى تواجه الجبهة فيحذر من غلواء بعض

المشتغلين بالقضية العربية لأنهم يعتبرون " كل ما هو غير عربى ـ وإن كان إسلاميًا ـ عدوًا للعرب والعروبة "، ويضيف أن تفاوت الأوضاع السياسية للبلاد العربية بين الاستقلال المقيد والانتداب يعيق قيام الجبهة العربية. (محمود عزمى، جبهة من شعوب عربية، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٨).

فى مقابل هذا النقاش تظهر أطروحات تبشر بالفكرة دون تحليل لجوانب التصور أو التحديات التى تواجهها، ومن تلك الأطروحات ما يؤكد أن الوحدة العربية حقيقة قائمة. كما أنها ستكون أعظم أركان نهضة الشرق، وتجتهد تلك الأطروحات فى تعريف الحدود الجغرافية للبلاد العربية بأنها تمتد من الخليج إلى المحيط.

ز ـ الموقف من الفكرة الشرقية :

قدم خطاب الهلال ثلاث أطروحات تعالج الفكرة الشرقية انطلاقًا من موقف معارض ومؤيد للفكرة العربية، وتدور الأطروحات الثلاث التى وردت فى مقال لمحمود عزمى حول صعوبة تحديد الفكرة الشرقية، ومن ثمّ يصعب توحيد أهل الشرق، وقد أثبتت ذلك الأحداث إذ إن الرابطة الشرقية عملت بالقضايا العربية والإسلامية فقط، مما يفيد على مستوى الخطاب المضمر أن ما هو شرقى هو بالضرورة عربى وإسلامى.

ح ـ الموقف من الجامعة الإسلامية :

ناقشت (٤) أطروحات و(٤) براهين الجامعة الإسلامية من موقف المعارضة والرفض. ورغم أن الرابطة الإسلامية أكثر فعالية مقارنة بالفكرة الشرقية إلا أن صاحب تلك الأطروحة هو محمود عزمى، حيث يؤكد قلة الاهتمام بالرابطة الدينية كأساس للنهضة أو مقاومة الاستعمار ببرهان أن الاستعمار يستخدم المذاهب الدينية فى التفريق بين الأمة. ويدعو عزمى للتمييز بين الإسلام كعقيدة والإسلام كنظام اجتماعى واقتصادى، ويخلص إلى صعوبة توحيد الدول الإسلامية فى كتلة واحدة ببراهين اختلاف درجة التطور فى كل بلد إسلامى، فضلاً عن الاختلافات الثقافية والتاريخية.

ط ـ الموقف من الأقليات :

ينمو ببطء اهتمام الخطاب القومى العربى فى الهلال بقضية الأقليات فى الأقطار العربية وفى إطار أى مشروع للوحدة العربية، والواقع أن هذا الاهتمام يعكس نضج وتطور هام فى بنية الخطاب القومى العربى. فى هذا السياق يقدم خطاب الهلال (٣) أطروحات وبرهانًا واحدًا، ويصور محمود عزمى فى إحدى الأطروحات العناصر غير العربية كأعداء للوحدة العربية ببرهان موقف الأكراد فى العراق، بينما يرى طه حسين أن الدين بين الأمم العربية واحد فى أغلبه.

أما غير المسلمين فيرتبطون باللغة والأدب بما يفيد أن الثقافة العربية توحد بين العرب على اختلاف أديانهم، والمعروف أن طه حسين كان يقر بوحدة الثقافة العربية، إلا أنه لا يقر بقيام رابطة سياسية بين العرب. ويؤكد فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية فى المملكة العربية السعودية على أن الأقلية غير المسلمة تتمسك بالعروبة. هكذا تصبح الثقافة العربية والعروبة على مستوى الخطاب المضمر بمثابة البوتقة التى تجمع وتصهر الأقليات العرقية غير العربية، وكذلك غير المسلمين من مسيحيين ويهود .

المبحث الثانى

التحليل النقدى للخطاب الإعلامى

يتناول هذا المبحث عرضًا شاملاً لمثال قدمه فيركلاو لتوضيح أبعاد إطار عمل التحليل النقدى للخطاب، ويتناول هذا المثال تقريرًا صحفيًا نشر عام ١٩٨٥ بجريدة (The Sun) البريطـانيـة بشأن وثيقة حكومية (تقرير حكومى) عن تعاطى المـخـدرات (انظر النموذج فى الشكل رقم ٢).

يهدف هذا المثال إلى إعطاء القراء نظرة سريعة عن كيفية تطبيق إطار عمل التحليل النقدى للخطاب فى حالة معينة. لذلك يقول فيركلاو : " سوف انتقى تعليقاتى بدقة، على سبيل المثال لن أتحدث عن استهلاك الجمهور لهذا التقرير، ولن أحاول تقديم تحليل كامل، وسوف أنحرف قليلاً عن الترتيب الذى قدمت به إطار عمل التحليل النقدى، فأقوم أولاً بتحليل هذا النص كحدث اتصالى من ناحية "ممارسة الخطاب" و " النص"، مع تأجيل مناقشة الممارسة الاجتماعية الثقافية حتى أقوم بالتعليق على ما يدل عليه هذا المثال بشأن نظام الخطاب الإعلامى " .

الحدث الاتصالى

تتضمن ممارسة الخطاب هنا تحويلات للنصوص المصدرية، فتقرير اللجنة المشار إليه فى التقرير الإخبارى أضيف إليه بعض وقائع مؤتمر صحفى أو حديث صحفى تمت الإشارة إليه فى الفقرة قبل الأخيرة من تقرير جريدة الصن، ومن المتوقع أن النص مر عبر عدد من النسخ حيث تم تحويله من خلال سلسلة من الأحداث الاتصالية المتصلة معًا.

وممارسة الخطاب معقدة، بمعنى أنها تؤلف بين ملامح الخطاب المستهدف وخطاب الاستهلاك واللغة العامية غير الرسمية المستخدمة بالحياة الخاصة private life ويتضح ذلك فى تحليل التناص، والذى ينظر إلى النص من منظور ممارسة

الخطاب، بهدف فك التشابك بين الأنواع الأدبية والخطابات المختلطة معًا داخل ذلك النص.

وسوف أركز على الخطابات discourses، وخصوصًا كيف تم الوصل بين الخطابات الرسمية المتعلقة بتهريب المخدرات وتطبيق القانون وبين الخطابات الجماهيرية المتعلقة بتهريب المخدرات وتطبيق القانون، وذلك فى إطار نوع أدبى من الأخبار الواقعية المهمة. ثم يجب أن نقارن ذلك مع ما جاء فى تقرير الصن وهو التقرير المصدرى. والذى جاء فيه : " يجب أن تفكر الحكومة فى استخدام القوات البحرية الملكية والقوات الجوية الملكية للاضطلاع بمهام المراقبة بالرادار أو بالطائرات أو بالسفن، لذلك نوصى بضرورة تكثيف جهود تطبيق القانون ضد مهربى المخدرات من جانب مصلحة الجمارك والشرطة والخدمات الأمنية التابعة لجلالة الملكة، وربما أيضًا من القوات المسلحة ".

ينقل التقرير المنشور فى جريدة (The Sun) عن الخطابات الرسمية الواردة بالمقتطف السابق. ويتضح ذلك بصفة خاصة عند النقل المباشر عن التقرير وعن رئيس اللجنة المشار إليها، ولكنه يظهر أيضًا فى أجزاء أخرى من التقرير.

والمدهش فى النص – موضوع هذا التحليل – هو استخدام الخطابات الرسمية والجماهيرية (العامية) معًا رغم تباينها داخل ما يسمى تقليديًا بـ " الحديث المنقول" reported speech، أو بعبارة أدق بالأخبار عن المصدر المكتوب (التقرير الحكومى). ورغم أن المقتطف المنشور يشار إليه باعتباره مقتبسًا مباشرة من التقرير، إلا أن الحدود غير واضحة بين ما قاله التقريرالرسمى بالفعل، والنسخة المحمولة إلى خطاب موجه للجمهور العام من جانب الجريدة.

وعلى سبيل المثال، يتخذ العنوان الرئيسى شكل الاقتباس المباشر، رغم عدم وضعه بين قوسين. ويبدو من تقرير الصن أن الجريدة ذاتها تستحوذ على حق اللجنة فى الدعوة إلى التحرك، رغم أن هذه الدعوة مترجمة إلى خطاب إعلامى

جماهيرى أو عامى فتصبح طلبًا بدلاً من توصية، وتفقد لهجة وتحذير الحديث الأصلى. فالنص الأصلى " يجب على الحكومة التفكير فى استخدام القوات " يتحول فى النص المنشور إلى " استدعوا القوات المسلحة".

ولبيان ذلك بالتفصيل ينتقل فيركلاو إلى التحليل اللغوى للنص ويقول: "سوف أركز على بعض الملامح اللغوية السطحية نسبيًا المتعلقة بالمعجمية والاستعارة أو المجاز، وفقًا لممارسة الخطاب المعقدة وعلاقات التناص المعقدة "، إذ يتسم هذا النص (تقرير الصن) بعدم التجانس نسبيًا من الناحية اللغوية. وعلى سبيل المثال فى المقتطفات المقتبسة بشكل مباشر من التقرير الرسمى، يستخدم تقرير الصن نفس اللفظ " تجار " traffickers الذى يستخدمه التقرير للإشارة إلى الذين يتعاملون فى المخدرات، بينما يستخدم التقرير الصحفى ألفاظًا عامية لا توجد بتاتًا فى التقرير للإشارة إلى هؤلاء التجار فى أماكن أخرى من المقال مثل :" انتهازيون" و" بائعون متجولون" pushers and peddlers.

ولكن حتى فى الأجزاء التى يتم فيها تلخيص التقرير الحكومى بدلاً من اقتباسه أو النقل المباشر عنه ، يستخدم الخطاب الرسمى أحيانًا تعبيرات مثل : القوات المسلحة، وتطبيق القانون، والخدمات الأمنية. كما يجب أن نقارن بين كلمة forces فى العنوان الرئيسى ومصطلح " القوات المسلحة " armed forces فى الفقرة الأولى من التقرير الصحفى ، حيث نجد أن الكلمة الأولى تنتمى إلى الخطاب الجماهيرى أو العامى بينما ينتمى مصطلح " القوات المسلحة " إلى الخطاب الرسمى.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : لماذا يستخدم تقرير الصن مثل هذين المترادفين من المصطلحات؟ ربما لأنه يترجم الخطاب الرسمى إلى خطاب جماهيرى أو عامى، وبذلك يعطى قوة شعبية للأصوات الرسمية مع الحفاظ، فى نفس الوقت، على شرعية الخطاب الرسمى. إن موقف ووجهة نظر الجريدة يعبران عن تناقض، وهذا التناقض يظهر فى عدم تجانس اللغة. ويشير هال Hall وآخرون إلى اتجاه فى الإعلام نحو " ترجمة وجهات النظر الرسمية إلى عبارات عامة، بحيث

يجعل وجهات النظر الرسمية أقرب إلى فهم غير المثقفين، كما يمنح المواقف الرسمية قوة شعبية ورنينًا شعبيًا عن طريق تطبيعها داخل أفق فهم الجماهير المتنوعة.

والملاحظ أن استخدام المعجمية العامية فى تقرير جريدة الصن له وظيفة فكرية ووظيفة شخصية بينية، فهذا الاستخدام يمثل عرضًا معينًا للواقع الاجتماعى المعنى، أى عرضًا متحيزًا للوقائع، ولكن فى نفس الوقت، عندما تستخدم الجريدة هذه المعجمية العامية، فهى تطالب ضمنيًا بمشاركة الجماهير فى الحياة العادية وفى التجربة المستفادة منها، فضلاً عن إيجاد علاقات تضامن بين الجريدة وجمهور القراء، ولكن هذه المطالب الضمنية تبدو مقبولة عبر استخدام معجمية الخطاب الرسمى أيضًا، وبالتالى فهذه المعجمية لها وظيفة آنية فيها يتعلق بعرض الأحداث representations والهويات identities والعلاقات relations. ويجب أن نلاحظ أيضًا كيف تعمل الملامح العلاماتية المرئية Visual semiotic مع اللغة، فى اتجاه معين، حيث نجد الخطاب الجماهيرى أو العامى وليس الخطاب الرسمى هو الذى يسيطر على العناوين الرئيسية الواضحة للنظر.

وتجدر ملاحظة الاستعارة التى تصور مكافحة تجار المخدرات مثل خوض معركة حربية، ورغم أن هذه الاستعارة توجد بالفعل فى موقع واحد من التقرير، إلا أنها مقدمة باستفاضة فى تقرير جريدة الصن بطرق غائبة تمامًا عن التقرير الحكومى الأصلى – أى تعبئة القوات المسلحة (مع استخدام لفظ عامى هو call up بمعنى "استدعاء") التى وردت بالعنوان الرئيسى، وتصوير تجارة المخدرات بوصفها غزو فى الفقرة الأولى من التقرير.

والاستعارة السابقة ذات أهمية من حيث مطالبة الجريدة ضمنيًا بعلاقة تضامن وهوية مشتركة مع جمهور القراء. وتستفيد الجريدة من فكرة الحرب لإثارة الذاكرة الشعبية والثقافة الشعبية، مع ادعاء مشاركة القراء فى تلك الذاكرة والثقافة. كذلك ترتبط هذه الاستعارة بين هذا النص – من ناحية التناص أو الصياغة النصية المتبادلة

– وبين التغطية الإعلامية الشعبية لموضوع المخدرات عبر فترة طويلة من الزمان، حيث إن عرض هذا الموضوع كحرب ضد تجار المخدرات يعتبر من الملامح القياسية للخطاب.

ومثل هذه الاستعارة ذات مضمون قوى أيديولوجيًا، فهى تفسر قضية المخدرات بشكل يؤدى إلى تهميش الأنظمة الخطابية الأخرى لبعض المجموعات المعارضة التى تعارض المخدرات، لكنها تنظر إليها كرمز للتغريب الشامل الناتج عن النظام الرأسمالى وسرعة التغيير المرتبط بآثار البطالة والمساكن غير الملائمة.

الشكل رقم (٢)

مقتطف من جريدة The Sun بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٨٥

١ – عنوان تمهيدى : فى تحذير من أعضاء البرلمان : بريطانيا تواجه حربًا لمنع التجار الجائلين.

٢ – عنوان رئيسى : استدعوا القوات للمعركة ضد المخدرات : بقلم ديفيد كمب David Kemp

٣– يجب استدعاء القوات المسلحة لمكافحة غزو شامل من تجار المخدرات الانتهازيين – هذا ما طالب به أعضاء البرلمان بالأمس.

٤ – إن تجار الكوكايين يمثلون أكبر تهديد واجهته بريطانيا فى وقت السلم، ويمكن أن يدمر طريقة الحياة فى البلاد، كما قالوا.

٥– ويريد أعضاء البرلمان من الوزراء أن يفكروا فى إصدار الأوامر للبحرية وللقوات الجوية الملكية لتتبع السفن المشتبه فى نقلها للمخدرات، والتى تقترب من شواطئنا.

٦– وداخل البلاد، يجب تكثيف تطبيق القانون من جانب الجمارك والشرطة والخدمات الأمنية.

الأرباح

٧– قامت لجنة الشئون الداخلية التى تضم كافة الأحزاب بزيارة أمريكا، وقد أصيبوا بصدمة عميقة مما رأوه.

٨- وفى واحد من أقسى تقارير مجلس العموم منذ سنوات، حذرت بجدية اللجنة التى يرأسها المحامى " تورى " Tory عضو البرلمان السير / إدوارد جاردنر Edward Gardner Sir، مما يلى : " يواجه المجتمع الغربى تهديدًا يشبه تهديد الحرب من صناعة المخدرات الإدمانية ، إن التجار يجمعون مداخيل طائلة من استغلالهم للضعف البشرى والملل والبؤس، ولابد من جعلهم يفقدون كل شئ .. بيوتهم وأموالهم وكل ما يملكونه والذى جاء من أرباحهم من بيع المخدرات ".

٩- قال السير / إدوارد بالأمس : " نؤمن بأن الاتجار فى المخدرات يعادل الاغتيال، ويجب أن تعكس العقوبة ذلك ".

ومن المتوقع أن تصدر الحكومة قوانين أكثر صرامة فى الخريف.

نظام الخطاب

إذا انتقلنا إلى المنظور الثانى داخل التحليل النقدى للخطاب، ماذا يقول لنا هذا المثال عن نظام الخطاب؟

ـ نمط الخطاب the discourse type : هنا نحن بصدد قصة خبرية واقعية ومهمة من الصحافة الشعبية، وبهذه الصفة يختلف نمط الخطاب عن أنماط المادة الصحفية الأخرى التى ترتبط بعلاقة اختيار choice relation داخل نظام الخطاب، مثل القصص الإخبارية التى تتضمن تعليقًا على أنباء أو آراء حول قضية معينة.

ويتميز نمط الخطاب محل الدراسة ببنية عامة نمطية بالنسبة لهذا النوع من القصص الإخبارية الواقعية والمهمة hand news، فهناك " نواة " تتكون من عنوان رئيسى (فى الواقع هناك عنوان رئيسى وعنوان تمهيدى) وفقرة رئيسية (مقدمة) تعطى لب القصة، ثم " عدد " من الفقرات التى تعطى تفاصيل القصة من مختلف الاتجاهات، وأخيرًا فقرة نهائية (خاتمة) تعطى إحساسًا بتقديم حل للقضية.

فى هذا النمط الخطابى الوارد فى نظام الخطاب المستخدم فى جريدة The Sun ـ

وغيرها من صحف التابلويد tabloids، بخلاف الصحف ذات الصفحات الكبيرة (استاندر) يتم التعبير عن هذه النوعية من الأخبار بمزيج من الخطابات الرسمية والجماهيرية أو العامية، كما يتضح من المناقشة السابقة . وبالتالى فنمط الخطاب الوارد فى هذا المثال مستقر ومعروف نسبيًا من الملامح الخارجية الواضحة لعلاقات الاختيار choice relations ، ونجد أيضًا الأسلوب العامى الجماهيرى الذى يشير إلى إعادة رسم الحدود بين نظام الخطاب (الخارجى) العام ونظام الخطاب الخاص فى إطار نظام الخطاب الإعلامى the media order of discourse من أجل إنتاج هذا الأسلوب الهجين بين ما هو رسمى وعام.

ومن ملامح **علاقات التسلسل** chain relations المدهشة فى هذا التقرير، هو طريقة استخدام وتحويل مصادر المعلومات وغرسها فى نص التقرير الصحفى . وقد سبقت الإشارة إلى هذه الازدواجية فى الأصوات، والتى تتعلق أحيانًا بمعرفة هل ينقل التقرير الصحفى كلمات التقرير الأصلى أم يعيد صياغة هذه الكلمات، مع تغييرها بشكل جذرى. وأعتقد أن هذه الازدواجية شائعة فى هذا النمط الخطابى. وهى ترتبط فى هذه الحالة ـ وبصفة عامة أيضًا ـ باختلاط الأنواع الأدبية، أى التأليف بين النوع الإخبارى الواقعى وبين عناصر من النوع الإقناعى.

ويلاحظ بصفة خاصة أن العنوان الرئيسى يحمل صيغة الأمر، مما يدل ـ كما أشرت سابقا ـ على المطالبة، فبالإضافة إلى نشر الأخبار يدعو تقرير جريدة الصن إلى شن حملة من أجل سياسات أو إجراءات معينة.

ومن الملامح الأخرى لعلاقات التسلسل الخطابى، نجد أن تقرير الصن يرتبط ـ عن طريق التناص intertextually ـ بسلسلة أخرى تتكون من التغطية السابقة لموضوع المخدرات فى وسائل الإعلام الشعبية، ويعتبر هذا النوع من التسلسل سمة عامة إلى حد كبير فى النصوص الإعلامية.

أخيرًا وباختصار، بالنسبة إلى **الممارسة الاجتماعية الثقافية** the sociocultural

practice التى شكلت استقرار هذا النوع من النمط الخطابى نجد أن جريدة الصن تقوم بالإعلام عن أحداث مصدرية فى المجال العام لقرائها بمجال خاص (محلى) فى ظل ظروف اقتصادية شديدة المنافسة، لذلك فتعظيم توزيع الجريدة يمثل الشغل الشاغل لها داخل السياق الاقتصادى الأوسع نطاقًا، حيث يتم التركيز على الاستهلاك والمستهلكين ووقت الفراغ.

أما داخل السياق الثقافى الأوسع نطاقا والذى يتضمن القيم والتقاليد، فإن انتشار المعلوماتية قد يسبب مشكلات لعلاقات السلطة التقليدية، ويغيّر تغييرًا عميقًا فى الأبنية التقليدية ومفاهيم الهوية الذاتية. إن هذه الملامح للسياق الاجتماعى – الثقافى تشكل وتتشكل فى ممارسة الخطاب المعقدة، بالإضافة إلى التحول تجاه تلك الممارسة عبر فترة من الزمان. إذن تلعب الممارسة الخطابية دور الوسيط بين هذه الممارسة الاجتماعية – الثقافية غير المستقرة والنصوص غير المتجانسة.

و بالنسبة للجانب السياسى لهذا النوع من التقارير الصحفية، يمكن القول بأنه من أهم الآثار المتوقعة والمهمة لترجمة المصادر الرسمية والمواقف الرسمية إلى خطاب عامى أو جماهيرى، هو مساعدة هذه المصادر والمواقف الرسمية على اكتساب الشرعية لدى جمهور القراء، وهو فى هذه الحالة فئات الطبقة العاملة البريطانية. ويشير فيركلاو إلى أننا نحتاج إلى فحص عملية استهلاك هذه الأخبار والتقارير، أى كيف يقرأ هؤلاء الناس تلك المقالات لمعرفة الآثار الفعلية بالتفصيل .

ويبدو أن هذه العملية تمثل استراتيجية قوية لضمان استمرار هيمنة القوى الاجتماعية، على أساس تهجين لتلك الممارسات بهدف إعطاء بعض الشرعية لكل من الخطاب الرسمى والخطاب الجماهيرى أو العامى، وذلك من خلال الحفاظ على الخطاب الرسمى إلى جانب الخطاب العامى، مما يفيد ضمنيًا استمرار وتزايد شرعيتها، بينما يتم استخدام الخطاب العامى كقناة لتوصيل " الرسائل " الرسمية .

وفى نفس الوقت، تلعب الجريدة دورًا إقناعيًا بشن حملة لتأييد نسختها من

التوصيات الواردة بالتقرير الرسمى – ولكن أيضًا من خلال استعارة الحرب ـ مما يساعد على استدامة وإعادة إنتاج إقرارات أيديولوجية representations مسيطرة عن موضوع المخدرات.

وأعتقد أن هذا المثال يعتبر نموذجًا لنمط الخطاب المستقر نسبيًا. ولكن إعادة الهيكلة – داخل إطار الخطاب الإعلامى – للحدود بين نظام الخطاب العام ونظام الخطاب الخاص وظهور أشكال متنوعة من الخطاب العام – الجماهيرى تعتبر ملامح بارزة للإعلام الحديث الذى يتطلب إجراء تحليل تاريخى. فما لدينا هنا هو تركيب أو تأليف إبداعى مكوّن من نظام الخطاب العام ونظام الخطاب الخاص، وقد أصبح هذا التركيب تقليديًا ومألوفًا.

ولكن الصورة أكثر تعقيدًا من ذلك إلى حد ما، بمعنى أنه ـ فى سياق إعادة التفاوض المستمر حول الحدود العامة والخاصة ـ قد يفهم عدم تجانس مثل هذه النصوص فى ظل بعض الظروف كنوع من التناقض، وقد يصبح هذا النمط الخطابى المستقر نسبيًا غير مستقر. **(Fairclough, 1995)**.

خاتمة الكتاب

لعبت مدارس واتجاهات تحليل الخطاب المختلفة دورًا مهمًا فى التقريب بين تحليل الخطاب من ناحية، ودراسة الإعلام من ناحية ثانية، لكنها لم تنجح فى بلورة أطر نظرية واضحة أو إجراءات منهجية محددة متفق عليها لعملية تحليل الخطاب الإعلامى، وذلك على الرغم من ظهور تيار يدعو إلى التأليف بينها أو استعارة بعض المفاهيم التحليلية واستخدامها، أو إعادة تعريفها واستخدامها فى سياقات جديدة. ويبدو أن غياب الاتفاق بين مدارس تحليل الخطاب يرجع إلى اختلاف وتباين التخصصات ومجالات الدراسة والمنطلقات الفكرية والمعرفية للمنتمين لهذه المدارس،أو ربما أصبح الاختلاف وعدم الاتفاق أحد مظاهر عصر ما بعد البنيوية أو عصر ما بعد الحداثة الذى نعيشه، حيث يؤكد إيهاب حسن أن اللاحسم والذاتية هما أبرز سمتين لهذا العصر. (بيتر بروكر، ١٩٩٥، ص ص٢٩-٣١).

ومع ذلك يمكن رصد أهم نقاط الاختلاف والاتفاق بين مدارس تحليل الخطاب فى الآتى:

١- يمكن استخدام تحليل الخطاب فى كافة مجالات البحوث الاجتماعية وفى مقدمتها البحوث الإعلامية، لكن لا يمكن استخدام تحليل الخطاب كوسيلة للتحليل منفصلة عن قواعدها الأساسية النظرية والمنهجية. فكل منهج لتحليل الخطاب لا يمثل فقط طريقة لتحليل البيانات، وإنما يمثل وحدة نظرية ومنهجية متكاملة أى حزمة كاملة، وتتضمن هذه الحزمة :

أولاً: الافتراضات الفلسفية المتعلقة بالوجود Ontology، ونظرية المعرفة Epistemology ، ودور اللغة فى البناء الاجتماعى للعالم.

ثانيًا : النماذج النظرية.

ثالثًا : الإرشادات المنهجية التى توضح كيفية تناول أحد مجالات البحث بالدراسة والتحليل.

رابعًا : تقنيات محددة للبحث.

ففى مجال تحليل الخطاب تتشابك الأسس النظرية والمعرفية مع طريقة البحث، لذلك يجب أن يقبل الباحثون الأسس الفلسفية أولاً حتى يستخدمون تحليل الخطاب كوسيلة فى إجراء الدراسة التطبيقية.

٢ـ إن التكامل والترابط النظرى والمنهجى كأساس لعملية تحليل الخطاب ظل مسيطرًا لفترة طويلة على مدارس واتجاهات تحليل الخطاب. من هنا ظهرت كل مدرسة وأنتجت أعمالاً مهمة بشكل منفصل عن بقية المدارس والاتجاهات، وذلك كنتيجة طبيعية لاختلاف وتباين الأسس النظرية والمعرفية لكل منها، وبالتالى بدت كل مدرسة وكأنها جزيرة منفصلة رغم أن كل منها يعمل تحت مسمى تحليل الخطاب. لكن هذا الوضع تغير حيث ظهر اتجاه يعمل على الجمع والتأليف بين المفاهيم والأسس النظرية والمعرفية السائدة فى مدارس واتجاهات تحليل الخطاب.

إن مثل هذا العمل متعدد المناظير(جمع منظور) multiperspectival ليس فقط مشروعًا، ولكنه يعتبر قيمة موجبة فى معظم أشكال تحليل الخطاب. والمنطق وراء ذلك أن المناظير المختلفة تعطى أشكالاً مختلفة من المعرفة بشأن ظاهرة معينة، بحيث تنتج معًا فهمًا أوسع نطاقًا. ولا يعنى ذلك انتقاء عناصر مختلفة من مجموعة ما من المناهج المتباينه تمامًا بدون تقييم جاد للعلاقات بينها. فتعدد المناظير multiperspectivalism يتطلب تقييم الأهمية النسبية للمناهج المختلفة المختارة وتعيين نوع المعرفة التى يمكن أن يوفرها كل منهج مع تعديل المناهج المستخدمة وفقًا لهذه الاعتبارات. (Marianne Jorgensen & Louise Phillips, 2002)، بما يعنى أن الباحث هنا يقوم بعملية نقدية تركيبية وليس مجرد عملية تجميع غير واع

بين مناهج ومفاهيم نظرية متناقضة، كذلك فإن عملية التأليف التركيبى تعتمد أحيانًا على إعادة تعريف وإعادة استخدام لمفاهيم وأسس ومعرفية، وذلك وفق منهج تكاملى متعدد الرؤى والمناظير.

والثابت أن أغلب مناهج الخطاب تقوم على أساس التفسيرية الاجتماعية Social Constructionism، ومصطلح " التفسيرية الاجتماعية " مصطلح واسع تندرج تحته مجموعة متنوعة من النظريات الجديدة عن الثقافة والمجتمع. فتحليل الخطاب يعتبر واحدًا من عدة مناهج تفسيرية اجتماعية، ولكنه من أكثر هذه المناهج شيوعًا فى الاستخدام، لكن المفارقة أن كثيرًا من الباحثين يستخدمون مناهج لها بعض خصائص تحليل الخطاب دون تعريفها بأنها تحليل للخطاب.

وتحذر فيفيان بار Vivien Burr من صعوبة إعطاء وصف واحد يحاول تغطية كافة المناهج التفسيرية الاجتماعية نظرًا لتعدد تلك المناهج وتباينها، ورغم ذلك، تذكر " فيفيان بار " أربعة فروض تشترك فيها كافة تلك المناهج وهى:

أولاً : منهج نقدى تجاه المعرفة المسلم بها يتأسس على أن معرفتنا بالعالم يجب ألا تُعامل على أنها الحقيقة الموضوعية. فالواقع لا يصل إلينا إلا من خلال فئات معينة، بحيث إن معرفتنا وتصويرنا للعالم لا تعتبر انعكاسات للواقع الفعلي، بل هى نواتج طريقتنا فى تقسيم العالم إلى فئات، أى نواتج للخطاب بمصطلح تحليل الخطاب.

ثانيًا : الخصوصية التاريخية والثقافية، فالبشر هم أساسًا مخلوقات تاريخية وثقافية ونظرتنا إلى العالم ومعرفتنا به هى " نواتج التفاعلات فيما بين الناس فى مرحلة تاريخية معينة "، وبالتالى فإن الطرق التى نفهم ونصور بها العالم ذات خصائص معينة ومحددة تاريخيًا وثقافيًا، وبناءً على ذلك كان من الممكن أن تكون نظرتنا للعالم وهوياتنا مختلفة، كما يمكن أن تتغير عبر الزمان.

إن هذه النظرة التى تعتبر كل معرفة مشروطة Contingent – أى متوقفة على

عوامل أخرى – تعبر عن موقف مناهض للنظرة الأصولية Foundationlist view، والتى ترى إمكانية تأسيس المعرفة على قاعدة صلبة، تتجاوز حدود الأفعال البشرية المتوقفة عليها، وعلى هذا الأساس فإن الخطاب هو شكل من أشكال الفعل الاجتماعى الذى يلعب دورًا فى إنتاج العالم الاجتماعى ـ والذى يتضمن المعرفة والهويات والعلاقات الاجتماعية ـ وبالتالى فى الحفاظ على أنماط اجتماعية معينة.

ثالثًا: الصلة القوية بين المعرفة والعمليات الاجتماعية، حيث إن طرق البشر فى فهم العالم تنشأ وتستمر بواسطة العمليات الاجتماعية، فالمعرفة تنشأ من خلال التفاعل الاجتماعى لأننا نشيد حقائق عامة داخل هذا التفاعل الاجتماعى.

رابعًا: تتشكل الصلة بين المعرفة والعمل الاجتماعى فى إطار نظرة معينة للعالم، وبالتالى تصبح بعض أشكال التصرف طبيعية وتصبح أشكال أخرى مستهجنة أو غير متصورة. حيث إن فهم العالم بطرق مختلفة يؤدى إلى أفعال وتصرفات اجتماعية مختلفة، وبالتالى يكون للبناء الاجتماعى للمعرفة والحقيقة آثار اجتماعية.

إن الافتراضات الرئيسية للتفسيرية الاجتماعية Social Constructionism تضرب بجذورها فى النظرية الفرنسية ما بعد البنيوية Post- Structuralist ورفضها للنظريات التى تلجأ إلى تعميم أفكارها على كل الناس وكل العالم مثل: الماركسية والتحليل النفسانى، ولكن مازالت " التفسيرية الاجتماعية " ونزعة " ما بعد البنيوية " عناوين تثير الجدل ولا يوجد اتفاق عام حول العلاقة بينهما. (Marianne Jorgensen & Louise Phillips, 2002)

وقد تعرضت الافتراضات السابقة لكثير من الانتقادات، حيث يرى بعض المفكرين والباحثين أنه إذا اعتبرنا أن كل المعرفة وكل الهويات الاجتماعية "Contingent" مشروطة ـ أى متوقفة على عوامل أخرى ـ فيتبع ذلك أن كل شىء غير ثابت ويتغير، وأنه لا توجد أى قيود أو انتظام فى الحياة الاجتماعية.

لكن معظم التفسيريين الاجتماعيين يرون الواقع الاجتماعى أكثر تعقيدًا من

القواعد والنظم المعروفة، فرغم أن المعرفة والهويات تكون دائمًا مشروطة Contingent من حيث المبدأ، إلا أنها تصبح غير مرنة نسبيًا فى مواقف محددة. حيث تضع المواقف المحددة تقييدات على الهويات التى يمكن أن يضطلع بها الفرد وعلى التصريحات التى يمكن قبولها كتصريحات.

٣ـ باستثناء الدراسات اللغوية التقليدية التى استخدمت مفهوم الخطاب، يلاحظ الباحث حضورًا مؤثرًا وقويًا لمنهجية ميشيل فوكو ومفاهيمه الأساسية فى تحليل الخطاب الإعلامى، مع وجود اختلاف فى درجة اعتماد كل مدرسة على منهجية فوكو. فى هذا الإطار يمكن القول بأن مدارس تحليل الخطاب الألمانية أكثر تأثرًا بمنهجية ميشيل فوكو، مقارنة بأعمال فيركلاو وفان ديك، وقد نجح الأخير فى دمج وتطوير البعد الإدراكى فى عملية تحليل الخطاب، بينما لفت فيركلاو الانتباه إلى أهمية تحليل ممارسات إنتاج النصوص الإعلامية واستهلاكها، أى استقبال الجمهور وتفاعله مع الخطاب الإعلامى، فضلاً عن اهتمامه بعملية بناء النصوص والخطابات الإعلامية.

٤ـ إن التوجه النقدى فى تحليل الخطاب ـ والذى أصبح أحد أهم السمات الهيكلية لمدارس تحليل الخطاب – ارتبط بالتأثر الواضح بأعمال غرامشى وألتوسير ومدرسة فرانكفورت ومدرسة التحليل الثقافى وأعمال ميشيل فوكو ورولان بارت، وأخيرًا أعمال عالم الاجتماع الفرنسى بيير بورديو، وقد تجسد هذا التوجه النقدى فى التركيز على دراسة علاقات السلطة والهيمنة داخل المجتمع والأيديولوجية، وكذلك اختيار موضوعات للدراسة التطبيقية تكون ذات طابع اجتماعى وسياسى مؤثر، مثل: قضايا التمييز العنصرى والتمييز ضد المرأة وضد الأقليات والفئات المهمشة فى المجتمع.

فى هذا الإطار تلعب الأيديولوجية دورًا مهمًا فى التحليل النقدى للخطاب. فاللغة اختيارات أيديولوجية، كما أن الخطاب ممارسة ذات طابع أيديولوجى من حيث التكوين والتأثير، مع ملاحظة أن مدارس تحليل الخطاب استخدمت مفهومًا

للأيديولوجية والسيطرة الأيديولوجية أقرب ما يكون للغرامشية الجديدة، حيث يتفق فان ديك وروث ووداك و فيركلاو على أن ممارسة القوة فى المجتمعات الديمقراطية الحديثة لم تعد تعتمد على الإكراه بالدرجة الأولى بل على الإقناع، أى أصبحت عملية أيديولوجية بالمعنى الغرامشى، ويرى فان ديك أن الأيديولوجية هى أطر تفسيرية، كما تعتبر أساسًا لإدراك المواقف الاجتماعية. (Delinger,1995)

ولاشك أن الاتفاق على فكرة الهيمنة عبر الإقناع وتحقيق إجماع وتعدد شكلى داخل المجتمع – أو ما يعرف بالهيمنة الناعمة – هو ما دفع مدارس التحليل النقدى للخطاب نحو الاهتمام بتحليل الخطاب الإعلامى، حيث يعكس ويجسد كل من المجال الإعلامى والخطاب الإعلامى عملية الصراع والهيمنة عبر الإقناع وتزييف وعى الجماهير.

٥ـ رغم أهمية الأعمال التحليلية للخطاب الإعلامى التى قدمت فى إطار مدارس تحليل الخطاب، إلا أنها تظل قليلة نسبيًا من حيث الكم والنوع، وبالتالى فإن كثيرًا من المفاهيم التحليلية التى استخدمت لم تختبر على نطاق واسع، خاصة المفاهيم التى اعتمد عليها فيركلاو والتى لم يستخدمها إلا فى تحليل عينات محدودة قام باختيارها بدون توضيح لأسباب ومبررات هذا الاختيار.

من جانب آخر، فإن أغلب دراسات تحليل الخطاب الإعلامى ركزت على خطاب الصحافة المنشورة، ولم تمنح الخطاب الإعلامى فى الإذاعة والتليفزيون اهتمامًا مماثلاً، وربما يرجع ذلك لصعوبات تتعلق باختيار العينات وتحليل الصوت والصورة. وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية بحوث تحليل الخطاب التى اعتمدت على منهجية السيميولوجيا، وتحليل المحادثة فى تحليل الصور الفوتوغرافية والأفلام فضلاً عن البرامج الحوارية، ورغم العدد المحدود من هذه الدراسات إلا أن تأثيرها كان عميقًا، بل وأحدثت تحولات مهمة فى عملية تحليل الرسائل الإعلامية وفهم تأثيراتها بطريقة مغايرة للطرق والمناهج التقليدية الخاصة التى اعتمدت على تحليل المضمون الكمى. (شومان، يونيو ٢٠٠٤).

٦ـ يمكن القول بأن معظم مدراس تحليل الخطاب اعتمدت على عينات صغيرة من المواد الإعلامية، خاصة المواد المنشورة فى الصحف، واعتبرت نفسها نوعًا من التحليل الكيفى، ومن ثمّ لم تهتم بالمؤشرات الكمية **(Curtin, 1996)**، بل ركزت على الفهم والتأويل، انطلاقًا من فكرة مهمة عَبّر عنها بيجر ـ استنادًا إلى ميشيل فوكو – وتدعو هذه الفكرة إلى ممارسة التحليل وفهم الخطاب من خلال التعرف على القواعد والإجراءات الروتينية الخطابية فى كل جزء من الخطاب، وبالتالى يمكن حل مشكلة التعميم النمطى عن طريق الاستمرار فى تحليل الأجزاء الأكثر أهمية فى الخطاب (العقد الخطابية والنصوص المركزية) حتى لا يوجد شيء يمكن العثور عليه بواسطة هذا التحليل،ويؤكد بيجر أن تجاربه الذاتية فى مجال الدراسات التجريبية تشير إلى أنه بعد تحليل عدد قليل من أجزاء الخطاب لا توجد معلومات أو ملاحظات جديدة **(Langer, 1998)**. ولاشك أن اختيار النصوص المركزية التى تسجل الخطاب وتحولاته، والاتفاق عليها بين أكثر من باحث، تمثل إشكالية نظرية وإجرائية شائكة يدور حولها نقاش واسع بين الباحثين.

لكن ربما كان فان ديك الوحيد الذى خرج فى محاولاته البحثية التطبيقية عن التوجه السابق، وقام باختيار عينات كبيرة نسبية،ركز فيها على الأفكار العامة والبنيات الكلية للنصوص، وحاول من خلال تحليلها التوصل إلى مؤشرات كمية وكيفية. ويرى الباحث أن محاولات فان ديك أقرب إلى المناهج الإجرائية التقليدية، كما أنها حالت دون التعمق فى دراسة النصوص الإعلامية وسبر غور الخطاب الإعلامى الذى يختلف عن بقية أنواع الخطابات فى المجتمع من عدة أوجه، لعل أهمها: عمليات وظروف الإنتاج، والتوزيع وعمليات الاستقبال أو التلقى، والتى تتوقف بدورها على طبيعة الخطاب الإعلامى، وهل هو مقروء أم مسموع أم مرئى. **(Fairclough, 1995)**

٧ـ ظهرت كثير من مناهج وأدوات تحليل الخطاب، لذلك فإن الباحثين الجدد فى مجال تحليل الخطاب يصابون بالدهشة وربما الحيرة من هذا التنوع والتعدد

المعرفى. من هنا قام فليبس ورافاسى Philips & Ravasi بتحليل سلسلة من الدراسات التطبيقية التى استخدمت تحليل الخطاب، فوجد أنه من الممكن تصنيف تلك الدراسات وفقًا لبعدين نظريين أساسيين ـ البعد الأول: يتعلق بالأهمية النسبية للنص فى مقابل السياق داخل البحث. والبعد الثانى: يرتبط بمدى تركيز البحث على ديناميكيات القوة power dynamics ـ أى الدراسات النقدية ـ بدرجة أكبر، وذلك مقارنة بالدراسات التى تركز بتفصيل أكبر على اللغة أو عمليات التفسير الاجتماعى، أى الدراسات التى تتبنى النزعة التفسيرية. والثابت أن الدراسات النقدية أكثر انتشارًا بين مدارس تحليل الخطاب، ربما نتيجة الدور البارز والرائد لأعمال ميشيل فوكو، والتى أثّرت فى مدارس التحليل اللغوى والسيميولوجى وتحليل المحادثة، فضلاً عن مدارس تحليل الخطاب.

لكن ثمة دراسات أخرى اهتمت بثلاثة أبعاد فى التحليل هى : السياق والنص والخطاب، وفى هذا النوع من الأبحاث يقوم الباحثون بتضمين "النص" و"السياق" فى دراساتهم مع اعتبار "الخطاب" الجزء التكوينى للسياقات المحلية والعالمية الاجتماعية والثقافية "للنص"، وكذلك اعتبار الخطاب مكونًا من العديد من النصوص فى سياق تاريخى واجتماعى معين.

والواقع أنه عندما يشرع الباحثون فى إجراء البحوث التطبيقية يجدون أنفسهم مضطرين للاختيار من بين البيانات المتاحة لهم، فلا يستطيع أى باحث أن يدرس كل شىء. وبينما يكون السياق المحلى للنصوص محل الدراسة مهمًا دائمًا، يمكن تضمين السياق الاجتماعى الأوسع نطاقًا بدرجة أو بأخرى، وفقًا لاهتمامات الباحث ومنطلقاته النظرية ودوافعه.

وقد ركزت بعض الدراسات على التحليل الدقيق micro analysis لبعض النصوص ـ أى التحليل الذى يكتفى بدراسة بعض النصوص المنفردة ـ بينما منحت دراسات أخرى تغطية أوسع نطاقًا للعناصر الخطابية فى سياقات معينة غير أن بعض الدراسات اتجهت إلى الجمع بين النمطين.

وفى إطار التوجه نحو الجمع التركيبى اعتمادًا على منهج تكاملى بين مدارس تحليل الخطاب ظهرت أعمال بحثية مهمة ـ أبرزها أعمال فيركلاو ـ جمعت بين المناهج التفسيرية الاجتماعية التى تنتج استكشافات دقيقة عن طريقة تفسير واقع اجتماعى معين، وبين المناهج النقدية التى تركز بشكل أكثر صراحة على ديناميكيات القوة والمعرفة والأيديولوجيا التى تحيط بالعمليات الخطابية. ولكن تجدر الإشارة إلى أن العملية هنا نسبية لأن الدراسات التفسيرية الجيدة تهتم أيضًا بقضايا القوة والمعرفة، كما تتضمن الدراسات النقدية اهتمامًا بعمليات التفسير الاجتماعى.

وتخلص نلسن فيليبس وسينثيا هاردى إلى القول بوجود أربعة مناظير رئيسية تستخدم فى الدراسات التطبيقية وهى : التحليل اللغوى الاجتماعى والبنيوية التأويلية وتحليل الخطاب النقدى والتحليل اللغوى النقدى، مع ملاحظة التأكيد على أن الأبعاد الأربعة هى أطر عامة وليست فئات بسيطة أو مجموعات منفصلة، بل تمثل الأنماط المثالية بمفهوم ويبر Weber، فليس بالضرورة أن تقع كل البحوث فى فئة معينة تحديدًا، ولكن هذا التصنيف إلى أربع فئات عامة يسمح بتعيين أساليب مختلفة للبحث التطبيقى، مما يساعد على فهم وتصنيف البحوث والدراسات فى مجال تحليل الخطاب.

٨ـ مهما يكن من أمر الاتفاقات أو الاختلافات بين مدارس تحليل الخطاب، فإن منهجية تحليل الخطاب الإعلامى باتت تقليدًا علميًا معترفًا به ومتناميًا، ويكتسب كل يوم أرض جديدة رغم عدم وضوح مفهوم الخطاب وتضارب واختلاف المفاهيم والأطر النظرية الخاصة بتحليل الخطاب، لكنه وبشكل عام يعتمد على عدة علوم ومناهج اجتماعية، كما يدمج بين المساهمات الحديثة والنقدية فى مجال اللغويات واللغويات التطبيقية والنقد الأدبى، كما يزاوج بين التحليل اللغوى والسميولوجى، ويستفيد من الاتجاهات الحديثة فى التأويل، والتيارات النقدية فى علم الاجتماع والانثربولوجى، والدراسات الثقافية، وعلم النفس الاجتماعى.

من جانب آخر، فإن منهج تحليل الخطاب يمنح الخطاب الإعلامى أهمية خاصة،

وفى الوقت نفسه يراعى خصوصيته من زاوية تعدد أشكاله ومضامينه، سواء كان مكتوبًا أو مذاعًا أو مرئيًا، بالإضافة إلى علاقته الجدلية بالمجتمع، فهو لا يعكس الواقع أو علاقات القوة والهيمنة فى المجتمع فقط، وإنما يساهم فى بنائها عبر عمليات إدراك الواقع، وتحديد الهويات الاجتماعية، وتكوين الخطاب، واختيار المفردات، وكذلك عمليات التناص بين الخطابات والتفاوض بينها، ولاسيما التفاوض بين منتج الخطاب والجمهور الذى يستقبله، كما يلعب الخطاب الإعلامى دورًا مؤثرًا فى بناء العلاقات الاجتماعية وتحديد الهويات الاجتماعية والثقافية، فهو عملية مستمرة ومعقدة تتفاعل فيها وعبرها قوى ومتغيرات محلية ودولية تعكس أوضاع المجتمع وثقافته والمرحلة التاريخية التى يعيشها.

٩ـ تعكس مدارس تحليل الخطاب فى العالم حالة من عدم الاتفاق والجدل حول مفهوم الخطاب، وهل هو نظرية أو منهج، كما تعكس تعددًا فى استخدام أدوات وطرق تحليل الخطاب، وحدود هذا التحليل، ومثل هذه الحالة لا تعكسها الدراسات العربية التى استخدمت تحليل الخطاب، فثمة اختلافات ولكن من دون جدل أو نقاش علمى، كما أن أغلب هذه الاختلافات تفتقر إلى الأسس النظرية والمعرفية فضلاً عن محدودية الممارسات والتطبيقات العملية التى يمكن الاعتماد عليها فى إثراء الجدل والنقاش العلمى .وربما يمكن تفسير ذلك فى أن مستوى ونوع الدراسات العربية فى مجال تحليل الخطاب الإعلامى لم ترتبط بوضوح بمدارس تحليل الخطاب الأوربية، ولم تتفاعل معها أو حتى تنقل عنها بوضوح، بمعنى أنها كانت مجرد ظلال غير محددة الأبعاد لبعض تلك المدارس.

وربما يمكن تفسير ذلك فى ضوء حداثة الدراسات والبحوث الإعلامية العربية فى مجال تحليل الخطاب ـ كما تعكسها حالة مصر التى تعتبر من أوائل الدول العربية التى أنشأت معهدًا للصحافة ثم كلية مستقلة للإعلام عام ١٩٧٤ – ولم تُعرَف أو تُمارس منهجية تحليل الخطاب إلا فى نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات، حيث سادت منهجية تحليل المضمون الكمى التقليدى، وأصبح جزءًا من تقاليد المؤسسة

العلمية فى مصر مما أخّر ظهور واستخدام منهجية تحليل الخطاب فى الدراسات الإعلامية، وخاصة أنها اعتبرت خروجًا عن التقاليد العلمية السائدة، ومحاولة لتجريب منهجية غامضة غير محددة نظريًا ومنهجيًا ولا يوجد حولها اتفاق، لكن بفضل تشجيع عدد من أساتذة الإعلام وجهود عدد محدود من الباحثين الشبان ظهر عدد من أطروحات الماجستير والدكتوراه تبنت منهجية تحليل الخطاب.

ورغم قلة عدد دراسات تحليل الخطاب الإعلامى فى مصر واقتصارها على الخطاب الصحفى إلا أنها نجحت فى كسب مشروعية الوجود، وباتت تقليدًا معترفًا به، حيث أصبح من المقبول ـ فى ضوء التقاليد العلمية المعمول بها فى الجامعات المصرية والمجلات العلمية الدورية ـ إجراء ونشر دراسات تحليل الخطاب الإعلامى، كما أن هناك أعدادًا متزايدة من أطروحات الماجستير والدكتوراه قيد الإعداد تتبنى منهجية تحليل الخطاب الإعلامى المطبوع والمسموع والمرئى.

١٠ـ يمكن القول بأن معظم دراسات تحليل الخطاب الإعلامى التى ظهرت فى مصر قد نقلت وبدون تأصيل معرفى بعض المفاهيم والأطر النظرية عن بعض مدارس تحليل الخطاب الأوربية، بينما لم تتعرف على مدارس أخرى مهمة مثل: المدرسة الألمانية ومساهمات باحثى الدول الاسكندنافية، كما لم تستفد من الأعمال التأسيسية لميشيل فوكوـ ربما لأنه لم يكتب بشكل مباشر عن مجال الإعلام والخطاب الإعلامى ـ الأمر الذى أدى إلى ضعف ومحدودية الأطر النظرية والمنهجية التى اعتمدت عليها الدراسات العربية فى مجال تحليل الخطاب الإعلامى،وافتقارها إلى العمق النظرى والمعرفى. وقد أدى هذا الضعف إلى الوقوع فى مشكلات مفاهيمية ومنهجية وإجرائية مثل غموض مفهوم الخطاب، واعتماد بعض الدراسات على منهجية الدراسات اللغوية فقط، ووقوع دراسات أخرى فى نوع من الخلط الغريب بين تحليل الخطاب وتحليل المضمون الكمى التقليدى، واستخدام النوعين معًا وبطريقة تعسفية وغير مبررة فى بعض الدراسات، بالإضافة إلى استخدام عينات

كبيرة من النصوص الصحفية تغطى سنوات طويلة، مما أثقل كاهل تلك الدراسات وأسفر أحيانًا عن أنماط من التحليل السطحى .

وعلى سبيل المثال، فإن دراسة شومان (شومان ١٩٩٠) ـ التى حاول فيها، ولأول مرة، تجاوز التحليل اللغوى والدلالى للخطاب الصحفى ـ جمعت بدون وعى معرفى ومنهجى بين بنيوية ميشيل فوكو وتأويلية بول ريكور ومساهمات دومينيك مانجينو Maingueneau رغم ما بينهم من خلافات عميقة، وقد أدى هذا الخلط والاضطراب النظرى والمنهجى إلى تحليل عينة زمنية طويلة وعدد كبير من الصحف والمجلات باستخدام مؤشرات كمية وكيفية لم تساعد فى تعميق التحليل والتوصل إلى استخلاصات عامة (انظر نماذج من هذا التحليل فى الفصل الثالث).

وربما تكمن مشكلة اختيار الدراسات العربية لعينات كبيرة من النصوص إلى التأثر بالمنهجية الوضعية السلوكية التى تفترض المساواة بين أهمية النصوص وإمكانية اختيار عينات ممثلة،وهو ما ترفضه أغلب مدارس تحليل الخطاب، حيث إن النصوص لا تتساوى فى الأهمية، كما أن هناك نصوصًا مركزية أو حاكمة يُطلق عليها ييجر (العقد الخطابية)، فضلاً عن ضرورة فهم واستيعاب التناص والتشابك والتكرار بين النصوص والذى قد لا يضيف جديدًا لتحليل الخطاب، لذلك فمن المهم تحديد العقد والتشكيلات الخطابية والممارسات غير الخطابية والتركيز عليها فى التحليل بغض النظر عن كَمّ النصوص التى ستخضع للتحليل، ولاشك أن اختيار النصوص المركزية التى تسجل الخطاب وتحولاته هى إشكالية نظرية وإجرائية يدور حولها نقاش واسع من الضرورى أن يتابعه الباحثون العرب فى مجال تحليل الخطاب، ويشاركون فيه نظريًا وعمليًا.

أيضًا ربما يكون من المهم ليس فقط الانفتاح والتواصل مع مدارس تحليل الخطاب الأوروبية، بل الانفتاح والتواصل مع الدراسات العربية التى أجريت فى المغرب العربى فى مجال تحليل الخطاب عامة والخطاب الإعلامى خاصة، والتى يبدو أنها تناولت موضوعات بالغة الأهمية، كما تابعت بوعى وعن قرب مدارس

تحليل الخطاب الأخرى خاصة المدرسة الفرنسية، لكن العقبة التى تحول دون تعميم الاستفادة من هذه الدراسات على النطاق العربى تكمن فى أن معظمها كتب باللغة الفرنسية. من هنا أقترح ترجمة ونشر بعض من هذه الدراسات تدعيمًا للتواصل والحوار العربى – العربى فى مجال تحليل الخطاب الإعلامى. فضلاً عن ترجمة مساهمات المدارس الفرنسية والألمانية والاسكندنافية فى مجال تحليل الخطاب الإعلامى. وأعتقد أن دعوتى للترجمة لا يُقصد منها النقل أو الاقتباس المباشر، بل تهدف إلى التعرف والدراسة ثم التفاعل الواعى مع هذه المدارس، حيث إن الإطار الثقافى والخصوصية المجتمعية هى التى تحدد شكل الخطاب بمستوياته المختلفة. من هنا كانت دعوتى إلى ترجمة أعمال الباحثين العرب فى المغرب العربى فى مجال تحليل الخطاب بحكم الانتماء المشترك للغة والثقافة العربية.

وتبقى بعد ذلك كله مهمة الممارسة الواعية لتحليل الخطاب الإعلامى، تلك الممارسة التى تسمح بل ربما تشترط ـ وكما فعلت كل مدارس واتجاهات تحليل الخطاب ـ التنوع والتأليف التركيبى وفق منهج تكاملى يراعى الخصوصية الثقافية والمجتمعية.

* * *

المراجع والمصادر

أولا :ـ المراجع العربية

١- أحمد أمين، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية، الهلال، عدد يناير، ١٩٣٩ .
٢- أحمد لطفي السيد، جبهة من الشعوب العربية وهل هي ضرورة؟، الهلال، عدد ديسمبر،١٩٣٨ .
٣- أحمد يوسف، السيموزيس وتخوم النقد، ورقة مقدمة لمؤتمر الكويت الدولي لتحليل الخطاب، الكويت، ٢٦ـ٢٨ مارس، ٢٠٠٥ .
٤- أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمه سعيد بنجراد، بيروت ـ الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤.
٥- بهي الدين بركات، جبهة من الشعوب العربية، هل هي ضرورة؟، الهلال، عدد ديسمبر، ١٩٣٨.
٦- بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، بيروت ـ الدار البيضاء، ٢٠٠٣.
٧- بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبد الوهاب علوب، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٥.
٨- توني بنيكني، طرائق الحداثة ضد المتوائمين الجدد، المرجع السابق .
٩- جوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع،المجلد الأول، ترجمة محمد محمود الجوهري وآخرين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠٠ .
١٠- حديث مع الأمير عمر طوسون، الهلال، عدد يوليو، ١٩٣٠.
١١- رايموند ويليامز، طرائق الحداثة ضد المتوائمين الجدد، ترجمة فاروق عبد القادر،الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٩ .
١٢- زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، سلسلة مشكلات فلسفية، عدد (٨)، القاهرة، مكتبة مصر، د. ت .
١٣- الزواوي بغورة، تحليل الخطاب من الوجهتين الوصفية والتاريخية، ورقة

مقدمة لمؤتمر الكويت الدولى لتحليل الخطاب، الكويت، ٢٦ـ ٢٨ مارس، ٢٠٠٥.
١٤- الزواوى بغورة، مفهوم الخطاب فى فلسفة ميشيل فوكو، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠ .
١٥- سلامة موسى، المصريون أمة غربية، الهلال عدد ديسمبر، ١٩٢٨.
١٦- سلامة موسى، ثقافة مصر بين العرب، الهلال، عدد فبراير، ١٩٢٩.
١٧- سلامة موسى، إلى أيها نحن أقرب .. الشرق أم الغرب؟، الهلال، عدد يوليو، ١٩٢٧.
١٨- السيد النفادى، السيميوطيقا: علاقتها بالفلسفة والعلم عند كارناب،الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، يوليو – سبتمبر ، ٢٠٠٢.
١٩- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٢.
٢٠- صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ .
٢١- طلعت حرب، التعاون الاقتصادى بين الأمم العربية، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٩.
٢٢- طه حسين، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣١.
٢٣- عبد الرحمن شهبندر، لو استقل العالم العربى ، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٩.
٢٤- عبد الرحمن عزام، الإمبراطورية العربية وهل آن لها أن تتحقق، الهلال، عدد فبراير، ١٩٣٤.
٢٥- عبد الفتاح يحيى، وزير خارجية مصر، الشعوب العربية والشرقية، كيف تتحدد وكيف تتعارف؟، الهلال، عدد يونيو، ١٩٣١.
٢٦- عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ.
٢٧- على إبراهيم، حضارتنا القادمة .. فرعونية أم عربية أم غربية؟، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣١.

٢٨- على إبراهيم وهدى شعراوى وأحمد شوقى ومحمد شرف، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣١.
٢٩- على بن شويل القرنى، الخطاب الإعلامى العربى،المجلة المصرية لبحوث الإعلام، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٧.
٣٠- على عبد الرازق، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟، الهلال، عدد أبريل ١٩٣١.
٣١- عواطف عبد الرحمن، نادية سالم، ليلى عبد المجيد، تحليل المضمون فى الدراسات الإعلامية، القاهرة، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٨٣.
٣٢- كلود ليفى شتراوس، مقالات فى الأناسة، ترجمة حسن قبيسى، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٣.
٣٣- مارلين نصر، التطور القومى فى فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢-١٩٧٠): دراسة فى علم المفردات والدلالة، القاهرة، دار المستقبل العربى،١٩٨٣.
٣٤- محمد أحمد يونس، الخطاب الدينى فى الصحف المصرية خلال الفترة ما بين عامى ١٨٨٢-١٩١٤، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام جامعة القاهرة،٢٠٠٠.
٣٥- محمد العشماوى، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية هل هو أهم الوسائل لتقدم نهضة الشرق العربى؟، الهلال، عدد يناير، ١٩٣٩.
٣٦- محمد العشماوى، طه حسين، احمد أمين، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية هل هو أهم الوسائل لتقدم نهضة الشرق العربى؟، الهلال ، عدد يناير، ١٩٣٩.
٣٧- محمد حافظ دياب، سيد قطب، الخطاب والايديولوجيا، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٧.
٣٨- محمد حسام الدين إسماعيل، التغطية الصحفية الغربية لشئون العالم الإسلامى خلال عقد التسعينيات، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة،٢٠٠١.
٣٩- محمد حسين هيكل، الاتحاد الثقافى بين الأمم العربية، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣٩.

٤٠- محمد شومان ، تحليل الخطاب فى الدراسات الإعلامية، ورقة مقدمة لمؤتمر الكويت الدولى لتحليل الخطاب، ٢٦ – ٢٨ مارس، ٢٠٠٥.

٤١- محمد شومان، المشاركة السياسية للمرأة فى خطاب الكاريكاتور فى الصحافة المصرية ، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة الزقازيق، يونيو، ٢٠٠٤.

٤٢- محمد شومان، إشكاليات تحليل الخطاب فى الدراسات الإعلامية العربية: الدراسات المصرية نموذجا، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة المنيا، أبريل، ٢٠٠٤.

٤٣- محمد شومان، تطور فكرة القومية العربية فى الصحافة المصرية (١٩٢٤-١٩٥٢)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٠.

٤٤- محمد عابد الجابرى، الخطاب العربى المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢.

٤٥- محمد عبد الحفيظ الباز، موقف الصحافة المصرية من الثورة العرابية فى الفترة من ١٨٧٧-١٨٨٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣.

٤٦- محمد غرافى، قراءة فى السميولوجيا البصرية، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، يوليو – سبتمبر ٢٠٠٢.

٤٧- محمود إبراهيم خليل، انقرائية الخبر الصحفى اللغوية : بالتطبيق على الخبر الصحفى فى جرائد الأهرام والجمهورية خلال عام ١٩٧٨،رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٨٩.

٤٨- محمود إبراهيم خليل، التطور الأسلوبى والدلالى للغة الصحافة اليومية فى الفترة من ١٩٦٠-١٩٨٠، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة،١٩٩٣.

٤٩- محمود عزمى، جبهة من شعوب عربية .. ضرورة خلقها وكيفية تأليفها، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٨.

٥٠- محمود عزمى،أيها نقدم الرابطة الشرقية أم الإسلامية أم العربية؟، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٣.

٥١- مصطفى سويف وآخرون، صورة أمريكا كما تقدمها وسائل الإعلام : دراسة فى تحليل المضمون للصحافة النسائية، القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية، ١٩٧٧.
٥٢- المعجم العربى الأساسى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩.
٥٣- مكرم عبيد، المصريون عرب، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣٩.
٥٤- منصور فهمى، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟، الهلال، عدد أبريل ١٩٣١.
٥٥- ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، بيروت، المركز الثقافى العربى، ١٩٨٧.
٥٦- نورى السعيد، الشعوب العربية والشرقية، كيف تتحد؟ وكيف تتعارف؟ الهلال، عدد مايو، ١٩٣١.
٥٧- هشام عطية عبد المقصود محمد، تأثير السياسة الخارجية للدولة فى المعالجة الصحفية للشئون الدولية، دراسة مقارنة للصحافة المصرية خلال الفترة من ١٩٩٠ـ١٩٩٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٥.
٥٨- هشام عطية عبد المقصود محمد، علاقة النخب السياسية المصرية بالصحافة وتأثيرها فى أنماط الأداء الصحفى فى التسعينيات، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٨.
٥٩- الهلال، عدد أبريل ١٩٣٩.
٦٠- وائل محمد عارف قنديل، صورة مصر فى الخطاب الصحفى لمراسلى الصحف ووكالات الأنباء العربية العاملة فى مصر خلال الفترة من ١٩٩٠ـ١٩٩٦، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام جامعة القاهرة،٢٠٠٢.

ثانيًا : المراجع الأجنبية

1- Alistair Penny cook, critical applied linguistics in A Davies and C. Elder، eds, Handbook of applied linguistics Oxford: Blackwell, 2002.
2- Andrew Tolson, mediations text and discourse in Media, Studies, Edward Arnold، London, 1996

3- Brett Delinger, Critical Analysis, Discourse www.cnncritial. tri- pod.com, 1995.

4- Coates Jennifer,ed, Language and Gender, A reader, Maiden,MA, Blackwell.1988

5- D. Maingueneau, Initiation aux Methods/de L'Analvse du Discourse (Paris: Hachette, 1976)

6- Ellen Barton, Resources for discourse analysis in:composition studies, V36,i4,2002.

7- Fairclough, Discourse, social theory and social research: the discourse of welfare, journal of sociolingustics,4,2000

8- Fishman Jessica, Documenting Death : Photo journalism and spectacles of the morbid in the tabloid and Elite Newspaper, A Dissertation presented to the faculties of the university of Penn- sylvania in partial fulfillment of the Requirements for the degree of doctor of philosophy, 2001.

9- Gaye Tuchman,.Making news,New York, Free Press, 1987.

10- Habermas, Jürgen. The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society. Trans. Thomas Burger. 1962; Cambridge: MIT Press، 1989.

11- Hall, Stuart: Culture, the Media and the "Ideological Effect'. In James Curran, Michael Gurevitch & Janet Woollacott (Eds.): Mass Communication and Society. London: Edward Arnold.1997.

12- Halliday M.A.K, Language as Social Semiotic, London, Arnold,1978

13- James W. Tankard, reappraising discourse analysis and implications for news studies, 1994,http://list.msu.edu. (Accessed 1-10-2004).

14- K. Manheim, Essays on Sociology of Knowledge, London, 1952.

15- K. Manheim, Ideology and Utopia: Translated by Louis Writh and Edouard Shib London, 1948.

16- Kevin Howley, Textually mapping newspaper discourse, http:// list.msu.edu. 1999 (Accessed 2-10-2004).

17- Kress, Gunter and Hodge, Robert, Language as ideology, London, Rutledge and Kegan Paul,1979.

18- Marianne Jorgensen & Louise Phillips, Discourse Analysis as theory and method, Sage Publications, London, 2002.

19- Nelson Phillips and Cynthia Hardy, Qualitative Research Methods, Sage

Publications, London. 2002.

20- Norman fairclough, Media Discourse, London, Edward Arnold,1995.

21- Patricia A. Curtin, Textual analysis in mass communication studies: Theory and Methodology, 1996, http:// list.msu.edu (Accessed 19-7-2004).

22- Paul Ricceur, Du Texte a L'action, Essais D'hermeneutique 12, Paris: Editions du Seuil, 1983.

23- Paul Ten Have, Methodological Issues in C.A, Un. Of Amsterdam, 2005.

24- Roger Bromley,Cultural Studies in Britain". In A cultural Studies Reader. History, Theory, Practice. ed. Jessica Munns and Gita Rajan. London and New York: Long man، 1995.

25- Roy Langer, the concept of discourse analysis of complex communication events, 1998, http://ep.lib.cbs.dk (Accessed 12-9-2004).

26- Ruth Wodak, critical discourse analysis at the end of the 20th century in : Research on Language and Social interaction,32,1999.

27- Ruth Wodak and Micael Meyer, Method's of Critical Discourse Analysis، London, SAGE publications, 2001.

28- Scannel, Radio, Television and modern life, Oxford, Blackwell 1996.

29- Tompkins, Phillip, k. Principles of rigor for assessing evidence in qualitative, communication research, western journal of comm- unication, 1994.

30- Van Dijk , ed. Introduction,in Discourse as Structure and Process, A Multidisciplinary Introduction, Vol 1,London.sage, 1997.

31- Van Dijk, Critical Discourse Analysis,1998, www.hum.uva. nl/teun/cda.htm،)Accessed 12-1-2005).

32- Vagle, W. & Wikberg, K. (eds.). "What Do Members of Discourse Communities Have in Common?", New Directions in Nordic Text Linguistics and Discourse Analysis: Methodological Issues. Oslo: Novus Press, 1996.

33- www.saidbengrad.com.

* * *

صدر للمؤلف

١ـ الاحتلال الأمريكي للعراق، صوره ومصادره، مؤلف مشارك،بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥ .

٢ـ الاتصال الجماهيري، اتجاهات نظرية ومنهجية، بالاشتراك مع د. فاطمة القليني،القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع،٢٠٠٤.

٣ـ الإعلام و الأزمات (مدخل نظرى وممارسات عملية)، القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر و التوزيع، ٢٠٠٢.

٤ـ الدعاية والإعلان، بالاشتراك مع د. فاطمة القليني، القاهرة، مطبعة العمرانية للأوفست، القاهرة، ٢٠٠١.

٥ـ العولمة ومستقبل الإعلام العربي،القاهرة – الخرطوم، مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠٠.

٦ـ دراسات فى تاريخ الصحافة المصرية، بالاشتراك مع.د. محمد سعد،القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

٧ـ إشكاليات قياس الرأى العام،القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

٨ـ قيادات المرأة العاملة،، الأوضاع الراهنة وآفاق المستقبل،القاهرة، جمعية تنمية الديمقراطية، ١٩٩٩.

٩ـ تقرير الأزمات والكوارث فى مصر المحروسة، بالاشتراك مع د. رشاد الحملاوي،القاهرة، وحدة بحوث الأزمات والكوارث، كلية التجارة – جامعة عين شمس، ١٩٩٩.

١٠ـ الإعلام وجناح الأحداث،الرياض، مركز بحوث الجريمة بالمملكة العربية السعودية، ١٩٩٨.

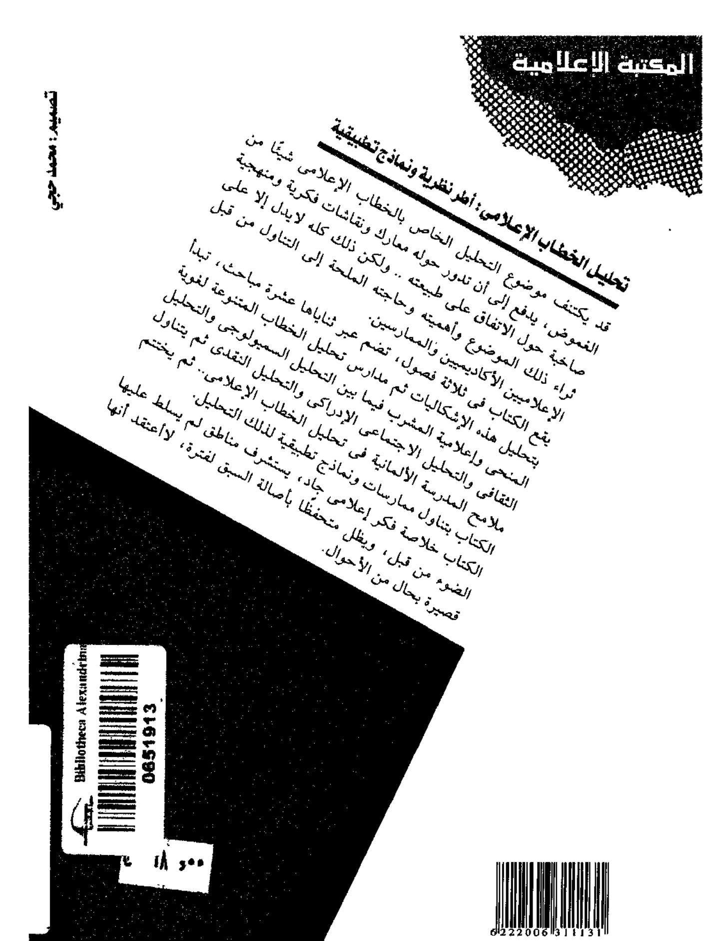
١١ـ دور الإعلام فى تكوين الرأى العام، حرب الخليج نموذجا، القاهرة، المنتدى العربى للدراسات والنشر، ١٩٩٨.

١٢ـ تقرير الأزمات والكوارث فى مصر المحروسة، بالاشتراك مع د. محمد رشاد الحملاوى، القاهرة، وحدة بحوث الأزمات والكوارث، كلية التجارة – جامعة عين شمس، ١٩٩٨.

١٣ـ "العرب والغرب" مقاربة ثقافية، مالطا – بيروت، مركز دراسات العالم الإسلامى، ١٩٩٢.

١٤ـ إشكاليات الفكر الإسلامى المعاصر، مؤلف مشارك، مركز دراسات العربى الإسلامى، مالطا ـ بيروت، ١٩٩١.

* * *


المكتبة الإعلامية
تحليل الخطاب الإعلامى: أطر نظرية ونماذج تطبيقية
قد يكتنف موضوع التحليل الخاص بالخطاب الإعلامى شيئًا من الغموض، يدفع إلى أن تدور حوله معارك ونقاشات فكرية ومنهجية صاخبة حول الاتفاق على طبيعته .. ولكن ذلك كله لايدل إلا على ثراء ذلك الموضوع وأهميته وحاجته الملحة إلى التناول من قبل الإعلاميين الأكاديميين والممارسين.
يقع الكتاب فى ثلاثة فصول، تضم عبر ثناياها عشرة مباحث، تبدأ بتحليل هذه الإشكاليات ثم مدارس تحليل الخطاب المتنوعة لغوية المنحى وإعلامية المشرب فيما بين التحليل السميولوجى والتحليل الثقافى والتحليل الاجتماعى الإدراكى والتحليل النقدى ثم يتناول ملامح المدرسة الألمانية فى تحليل الخطاب الإعلامى.. ثم يختتم الكتاب بتناول ممارسات ونماذج تطبيقية لذلك الخطاب التحليلى.
الكتاب خلاصة فكر إعلامى جاد، يستشرف مناطق لم يسلط عليها الضوء من قبل، ويظل متحفظًا بأصالة السبق لفترة، لاأعتقد أنها قصيرة بحال من الأحوال.
تصميم: محمد حجي
Bibliotheca Alexandrina
0651913
٣٠٠ ١٨ ع
6222006311131